هلا إسماعيل

بلا أجنحة





بلا أجنحة

رواية

هلا إسماعيل



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc.SAL



الطبعة الأولى
1436 هـ - 2015 م

ISBN: 978-614-02-2504-6

توزيع



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: (1-961+) 785107 - 785108 - 786233
ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: (1-961+) 786230 - البريد الإلكتروني: jchebaro@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

تصميم الغلاف: علي القهوجي

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف (9611+) 785107
الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف (9611+) 786233

الإهداء

إلى الذين أحبهم..
أبي.. أمي.. رجُلي.. وعائلتي..
وإلى دمشق..
هلا ..

ذاك الصباح، قطعتْ ميسا عليَّ شرودي بعينين ثاقبتين، وصرخت بي:

«لا تنتظريه يا غادة.. لن يأتي!!.. اذهبي أنتِ إليه وصارحيه.. فما جنيتِ من جلد العاطفة؟!.. وافتعال التناسي اليومي المتكرر؟!.. نحن لا نتوقف فجأةً عن حُب من نحب، وقد لا ننجح في التوقف أبداً.. اذهبي إليه.. حتى لو لم يكن ينتظرك.. اذهبي أنتِ إليه..».

أتصدِّق أن هذا ما فعلته بعد أعوام صبري في هواك!!.. حجزتُ لنفسي في أول رحلةٍ.. وأتيت..

أتيتك بكل ما في جعبتي من حبٍّ وعطش.. لأنك ساعة الرحيل.. سرقتَ المطر في جيب معطفك ومضيت.. وجعلتَ البحث عنك أشد ضرورة.. فالمرأة التي تخسر رجلها وشتاءها في يومٍ واحد.. تجمح لفعل أي شيء يعيد لها خصوبة الإزهار.. أو على الأقل من كانت تتوق أن تزهر لأجله..

ديسمبر 2013

دمشق / أبريل - 2002

ليلة البارحة لم أنم..

جاء رفضه لطلبي غريباً هذا العام.. فطوال السنوات الفائتة كنتُ أرجوه الطلب ذاته.. وفي كل مرة، كان يرمقني بامتعاضة.. يطيل الصمت في أمري، ثم يهز رأسه مفرجاً عن ابتسامةٍ جاذبةٍ أنيقة، لا أستطيع منع نفسي بعدها عن حضنه وتقبيله.. حتى إذا حلَّ المساء ونامت سارة، تسلل بهدوءٍ إلى غرفتي وهمس لي أن تعالي، فأسابقه إلى غرفته التي أحب وأدخلها حافيةً هائمةً بالفرح.. ليغلق الباب بهدوء خلفي ويطلب مني فتح يدي، ثم يضع مفتاح غرفتها على راحة كفي، مفتاحها الذي ما زال عَطِراً دافئاً وكأنها أفلتته قبل برهة.. يطوي أصابعي عليه بشدة، ويبكي بكاء طفلٍ تائه..

ما تخلّفتْ دموعه عن الحضور مرة.

«اذهبي الآن وأختك نائمة.. لا تحدثي ضجة.. ساعة واحدة فقط لا أكثر.. اذهبي!!».

وكأنما ملّكني الدنيا..

كنتُ أخرج من غرفته على قيد الأمل.. فتتنامى في جوفي الزاخر بالأسى ضحكاتها التي أشتهي.. وتنبت لي بأقل من دقيقة أجنحة من لهفة، تحملني إلى غرفتها.. أتحسس مكان القفل بأصابع مرتجفة فأعثره بعد عناء..

لكن صمتاً ما داخلي، أرجحني كل عامٍ، بين توقي للدخول وخشيتي ألا تكون في الداخل.. كنتُ أخاف أن يكون كل شيءٍ على حاله إلاها.. فأزداد في غرفتها يقيناً، بأنها «قد ماتت».

أجل، ماتتْ.. وماتتْ معها طفولتي.. وكأن موتها أودعني عمرها، فكبرتُ في لحظة، دهراً من الصمت والألم!!..

«آهٍ منكِ يا أمي!!.. كل شيءٍ في غرفتك على حاله إلاكِ!!.. كل شيءٍ ما زال يتنفس.. أوراقك الكثيرة المبعثرة في كل مكان، أقلامك الملونة، ستائر الشرفة، دبابيس الخياطة وقصاصات «التول» الوردية لفساتين العيد الذي ما جاء بعدك!!.. حائط الفوضى بصورنا المعلقة عليه، وقبلاتك، ولصاقات عن الحب جمعتها لسنوات دونما ملل!!.. أسطوانات أسمهان وفيروز، وبعض الشمع المعطر الذي جلبته معك من باريس.. حبال اللؤلؤ الملونة، علب الكريستال ولفافات الدانتيل.. كرسيك الهزاز، وشاحك الأسود، وعلى الأرض مجلات «البوردا» وعلى النضد كتابك المفضل «عاشقة في محبرة».. لا أنفكُّ

أقلبه كل عام بِحيرة!!.. ترى كم مرةً قرأته يا أمي؟!.. أحقاً فضلته لهذا العمق، أم أن شغفك بغادة دفعك لتسميتي غادة ولقراءة أدبها آلاف المرات بلذة المرة الأولى!!..».

اشتدَّ الصباح على مواجعي.. فدخلتْ سارة غرفتي بصخبها المعتاد.

«استيقظي.. الساعة أوشكتْ على العاشرة، لا أريد زيارتها دونك..».

نظرتُ إليها بفتور.. طفلتي المدللة هذه عديمة الحنين.. عصية الحزن.. مدمنة الشغب.. لا أصدق أن رحماً جمعني بهذي الشقية تسعة أشهر، وأن حناني المفرط وعنايتي الفائقة بها، جعلا منها عابثةً هكذا..

«ليتك هنا يا أمي لتنظري إليها.. ابنتك سارة، كلما ازدادت أنوثة ازدادت شبهاً بك.. عيناكِ العسليتان، شعركِ الأسود، بشرتك الذهبية الملساء، وجنتاكِ البارزتان، وذاك الفم الصغير المتقن للحديث والضحك..».

حدّثتُ نفسي وسحبتُ جسدي من السرير..

قال لي أبي ذات صفاء – في حديثه المقل عنها – إنها أحبت الاستحمام بماء بارد حتى في أكثر أيام الشتاء قسوة.. وإلى هذا الصباح ما زلتُ أيقظ جسدي بحمامٍ باردٍ لأستهل نهاري بذكراها..

سامحك الله يا عادل!!.. ماذا دهاك بالأمس ومنعك عن عادتنا السنوية.. كيف استطعت إيصاد قلبك عني، وترك غرفتها مطفأةً لعام جديد؟!.. أم تراك تسللت دوني، واستكثرت عليَّ ساعتي الوحيدة؟!..

جففتُ شعري على عجل وجمعته إلى الخلف، تماماً كما كانت تسرحه لي.. وخرجتُ من غرفتي عازمةً الجدال معه.. لكن شيئاً في الممر الخشبي تغيّر ذاك الصباح!!..

فسحةٌ من النور سطعتْ قبالة غرفتها، وكأن أحداً ما في الداخل.. سارعتُ الخطى حتى إذ وصلت، راعني ما رأيت..

كان باب الغرفة مفتوحاً عن خلوٍ تامٍ!!.. لا شيء هنا.. ولا حتى ستارة النافذة أو لصاقاتها المحببة!!.. أربعة جدرانٍ صامتةٍ كامدة، وسقفٌ وحيدٌ مبهم..

نزلتُ الأدراج درجتين درجتين.. كان وسارة على طاولة الفطور.. صرختُ كطفلةٍ مسَّها جنون..

«أبي!!.. غرفة أمي مفتوحة!!.. ربما أحدهم كسر القفل وسرق كل شيء!!..».

قام عن كرسيه وناداني..

«تعالي غادتي!!..».

جرّني بذراعه وعيناي معلقتان بصمته..

في حديقة المنزل، أجلسني على أرجوحة الياسمين.. دفعني بخفة، فعلمتُ أنه يمهد لخطبٍ ما.. وبعد دقائق.. مشى خطوتين أمامي.. أدار ظهره لي.. أشعل غليونه.. وراح ينفخ في الهواء دوائر الدخان المنتظمة..

شاب شعرك سريعاً يا عادل، ما زلتَ أربعينيَّ العمر يا رجلي!!.. اختنقتُ بعبرتي.. تراك ما فعلتَ ليلة الأمس يا أبي؟!..

نضح ذنبه بعد سكوت.. قال لي:

«تأتيني على غفلة من الصفو والرواق.. كجنيةٍ راقصةٍ تذهلني.. تأسرني بشتى الأطواق.. طوقٌ من أمل.. وآخر من غزل.. وآخر من لهيب الشوق ومُنى العناق.. كل ليلٍ أدخل غرفتها.. كظل باهتٍ ألامس أشياءها لعلها تأتي.. فلم تأتِ!!.. آلاف الليالي لم تنسني إياها.. بل عمقت وجعي.. وزادتني خسارة!!.. هذا الشوق الذي يصبح أكثر إيلاماً كل يوم.. سيقتلني يوماً وأنا جالسٌ في غرفتها بانتظارها.. ولا رغبة لي بالموت.. ولا طاقة لي على التسمم كل يومٍ بكل تلك التفاصيل.. قبل عامين اثنين راودتني الفكرة ذاتها.. فخشيت من خصامك إيّاي.. لكن قلبي ذاب يا غادة.. فارحميني!!.. نعم هو أنا.. قد فتحتُ الباب إلى الأبد.. ورميتُ كل الأشياء بلا أسف.. مزقتُ الستارة.. وحرقتُ أوراقها.. وحرقتُ معها ذاكرتي!!..».

نظر إليّ بعينين غاضبتين، ثم قال:

«أعلم أنك لن تغفري لي جريمتي هذه.. ولا بأس عندي ألا تغفري..».

وكأنَّ بيني وبين هذا الرجل علاقةٌ تغلبني دوماً بمفاجآتها!!..

أذكره قبل عشرة أعوام.. حين عاد حاملاً علبةً بيضاء كبيرة ملفوفةً بشرائط أنيقة، فتحها أمامي لأسترق نظرة، كان فيها ثوب أسود برّاق تزينه أزهار توليب أرجوانية، وصل إلى مكتبه ذاك الصباح من باريس.. فخطفني من لعبتي وقال لي:

«هيا.. هيا لنمسح بعض حزنها..».

كانت أمي حينها غارقةً في صمتٍ مخيف لأسبوعين كاملين.. ذلك بعد أن ظهرت نتائج تحاليل سارة، وفاجأنا الطبيب أنها مصابةٌ بمرض السكر، وعليها الالتزام بالعلاج والحمية طوال حياتها..

لا أذكر أنها أقبلت على الحزن بشراهةٍ كهذه من قبل، وما كانت كل أثواب الدنيا وورودها الملون لتنفع يومها!!..

على باب غرفتها، نقر أبي نقرةً واهيةً بأدب، فلم تجب.. كررها، فلم تجب.. حاول فتح الباب، كان مقفلاً من الداخل.. ازداد تواتر نقراته حتى

بلغت القرع المفزع، ولم تجب.. فحدث أن ألقى الهدية على الأرضية بغضب، وراح يدفع الباب بجسده حتى خلعه.. من المريب كيف جلستْ صامتةً غير آبهةٍ بكل تلك الثورة!!..

على كرسيها.. استلقتْ راخيةً جسدها، مغمضة العينين..

ارتميتُ بحضنها خائفةً من أبي.. لكنها ما اهتمتْ بي ولا بأبي!!..

نظرتُ إليها تارة، وإلى عادل في أخرى.. تلوّن غضبه بالخوف مثلي.. انحنى على ركبتيه أمام كرسيها، أمسك يدها وضغطها بقوة.. يديها الصغيرة كانت شاحبةً باردة.. وعلى الأرض جانبها علبة دواء فارغة، التقطها عادل، قرأها، ثم شدنا إليه.. احتضنها وأنا عالقة بينهما.. فسمعتُ أنينه ونبضاته المتسارعة.. بينما أصرّتْ - هي - على دور الميتة!!..

والحقيقة أنها ما كانتْ تتظاهر!!..

رائحة ياسمين الأرجوحة، أيقظتني من سهوتي وأخمدت ذاكرتي.. وليت لي جرأة عادل لأحرقها وأستريح..

عاد قبلي إلى مائدة الفطور.. كانا - هو ومدللتي - يتبادلان حديثاً عن «فولتير»، وكيف أنه جاء إلى الحياة طفلاً مريضاً هزيل القد، حتى أن الممرضة التي أشرفت على ولادته تنبأت أنه لن يعيش أكثر من سنة كمصير إخوته الأربعة، لكنها أخطأت قليلاً، لأنه عاش ثلاثة وثمانين عاماً.. وكيف أن موت أمه لم يؤثر على نبوغه فاستطاع أن يعلو كأبرز شعراء فرنسا وفلاسفتها..

جلستُ بهدوء في مقعدي.. تناولتُ قطعة خبز، ونظرتُ إلى عادل.. قد كان منهمكاً بالشرح والتفصيل لسارة التي بدتْ عليها علامات السهو والضجر..

- وقف في وجه رجال الكنيس وتحداهم قائلاً : لقد قام نبي المسلمين محمد بأعظم دور في الإنسانية وأقل ما يقال عنه إنه جاء بكتاب واحد لم يتغير وأنتم اليهود غيرتم دينكم مئة مرة ..

قالها مأخوذاً بالعظمة، فأضحكني وما بي رغبة..

- لم تضحكين؟ !

انفعل غاضباً..

- عذراً ..

استمرأتُ خجلي..

- بالطبع يضحكك أن يجاهر يهوديٌّ باحترامه لمحمد .. كيف لا، وغرفتك ملأة بشعوذات سبينوزا وابن القطان - عنى نعيم قطان - والآخر

النقاش – عنى سمير نقاش – والملحد هرتزل !!..

وضع فنجان الشاي على الطاولة بحدة فارتجّت الكؤوس والأطباق..

كان قد احترف إهانتي في كل فرصة، ووصمي بعار أمي.. فقط لأنني قررتُ نقل مكتبتها إلى غرفتي..

– أنا مسلمة يا أبي ولست يهودية .. وأحب ديني أكثر من الشعر والأدب .. وبمناسبة الحديث عن فولتير .. قد كان مسيحياً منتقداً لدينه، يكره اليهود ويراهم جهلة همجيين، ويحترم محمد لذكائه في نشر رسالته .. وخطابه الذي ذكرتْ، وجّهه لرجالات الكنيسة لا الكنيس ..».

أجبته ممتعضةً.. فشهر سلاح أبوّته في وجهي..

– يوماً ما، سأصعد إلى غرفتك وأحرق تلك المكتبة البائسة التي ما زادتك إلا فجوراً ووقاحة !!..

– يبدو أن نشب الحرائق صار هوايتك الجديدة ..

نهض منفعلاً، محمر الأذنين، يريد المغادرة.. استوقفته سارة تسأله متى نذهب لزيارة قبر أمي.. فشجبها غاضباً..

«اذهبا مع سالم..».

كان أن خطفتْ تفاحة خضراء، وصعدتْ إلى غرفتها ترنم أغنية لعمرو دياب.. لن تذهب هي أيضاً، بدا ذلك واضحاً..

******

في الطريق إلى مزرعتنا في «الغوطة».. بشّرني سالم أنه حصل على موافقة البنك العقاري، وسيستلم نقود القرض بعد أقل من شهر ويشتري شقة صغيرةً في حي القدم ليتزوج من ليلى.. كان قد ادخر مبلغاً متواضعاً ليقيم عرسه المحلي في الحي.. أخبرني أنني أول المدعوّين..

– أتشرف بالحضور .. أنت صديقي يا سالم ..

وافقتُ مبتهجة..

– العفو يا آنسة ..

نظر إليّ بغبطة..

لطالما غلبني بتواضعه الرقيق، لكنه كان حقاً أكثر من صديق.. فمعه، وفي هذه السيارة، واجهتُ مواقف كثيرة.. شاركني فيها أمل اللقاء وصمت الوداع.. وقاسمني لحظات الحزن والفرح.. كان صديقاً خفيف الظل، عفيف النفس، محدود الثقافة.. لكن في روحه مساحات شاسعة للطمأنينة.. يشعرني بالأمان بمجرد رؤيته.. وربما لولا حبه لليلى – خطيبته – لكنتُ أحببته..

أخرجتُ من حقيبتي رواية للنقاش كما كنّاه عادل، كنتُ قد عثرتها

بين كتب أمي.. فأثارني العنوان «نزولة وخيط الشيطان».. وعندما شرعتُ في عبور الرواية وقعتُ في عمقها ثائرة المشاعر.. آساني بطلها يعقوب، اليهودي العراقي الذي أرغم على ترك بلده وإسقاط جنسيته ليرحّل إلى إسرائيل مع فصيل اليهود ويستقر في معسكرٍ من معسكرات اللجوء العشوائية.. آساني حنينه إلى بلده الأم «العراق» ورثاؤه لنفسه إذ نُعت بالخائن.. وحزنتُ كيف فشل في محاولة هروبه من إسرائيل وكيف رُدّ من على الحدود اللبنانية إليها من جديد..

من المثير حقاً أن تقرأ رواية كاتبها بطل.. إذ تبدو التجربة أعمق، وحقائقها أصدق.. فيعقوب هو تشبيهٌ بلاغيٌّ للكاتب نفسه، ذاك اليهودي النابت في العراق، والذي انتزع - بقرار حكومي - كعشبةٍ غريبة ونُبذ خارجه.. فضاع بين حنينه للوطن وشتاته في أشباه الوطن.. وحين اضطر للعودة إلى إسرائيل اختار دراسة الأدب العربي في جامعتها العبرية.. فحاز على درجة البكالوريوس.. ورغم إتقانه العبرية، خطَّ كل مؤلفاته بالعربية..

كيف يؤاخذني عادل لو رقّ قلبي لعبقريةٍ كهذه؟!..

هي ليست مسألة ديانة، هي مسألة وطن!!..

فكيف يهمُّ مسلمٌ بقتل يهوديٍّ في العراق، لأن يهودياً قتل مسلماً في فلسطين؟!.. كيف أعطى لنفسه الحق ببغداد، فنهب وقتل وهجّر جاراً له بالأمس كان عزيزاً، فقط لأنه «الأكثرية» وجاره «الأقلية»؟!.. أحقاً يعنينه أخوته الفلسطينيون؟!.. وإن كان كذلك، لِمَ لَمْ يذهب فيثأر لهم على أرضهم ومن مغتصبيهم؟!

ما شأننا - نحن العرب - نستسيغ نعوت البداوة، ولا نتحلى بثقافة ديننا النائي عن حماقات الجاهلية؟!..

قبل بضعة أشهر، كنتُ وسارة نتسوق في شارع الحمرا ببيروت.. دخلنا محلاً نسأل عن قطعة جميلةٍ في العرض، فاحتدت البائعة وصفعتنا بسؤالها: «سوريون؟!».. أجابت سارة ببراءة «نعم..».. فضربت البائعة كفاً على كفٍّ ونهرتنا.. «ليس في محلي شيءٌ للبيع!!».

وما ذنبي أنا أن تمنع عني بيعها، إذا فرضت حكومة بلدي - قبل عشرة أعوام - على بلدها معاهدة «الأخوة والتعاون والتنسيق» لتبرر دخولها العسكري إلى لبنان، بعد فشل «عون» في حرب التحرير وهربه إلى فرنسا؟!.. كيف استطاعتْ تعميم العداوة لتطالني أنا الرافضة مثلها للوجود السوري في لبنان؟!.. وما ذنب كل تلك العوائل - السورية اللبنانية الخليطة - كي تدفع ضريبة لعبةٍ سياسيةٍ بين البلدين؟!..

نظرتُ من نافذة السيارة، النصف مفتوحة..

تُنسيك بساتين الغوطة الغنّاء دهاليز المجتمع المدني المرهق بسياساته وتقلباته ونزواته الطائشة.. هنا تغدو البساطة سيدة الموقف.. عوائل في كل بستان وعلى ضفاف «بردى» يغنون ويعزفون ويقلبون الشواء على أكوام الحطب المشتعل.. أطفال يتقاذفون الكرة ويتراشقون الماء، فراشات الربيع وعليل الهواء.. كذلك أشجار التوت والمشمش، والدرّاق والجوز، وحقول الخضرة النابضة حياة بين شرايين النهر المتشعبة..

هو حب الحياة.. ذاك الذي تعلّمه أبي من أمي حين عرفها..

كان عادل شاباً فتياً وابن أشهر تجّار الأنتيك في الشام.. ورث بعد موت أبيه تجارته ومعظم ماله، ولطالما كان ميسور الحال.. لكنه لم يبلغ الثراء إلا بفضلها.. شجّعته على استثمار تجارته في أسواق باريس ولندن.. كانت ترى انبهار السياح في «الحميدية» بأبسط قطع الأنتيك والشرقيات، واعتقدتْ أن بيع قطعٍ نادرة الفن ومتقنة الصنع كهذه في بلاد الغرب، سيعود على أبي بالثروة لا محالة.. وهذا ما حصل!!.. فتُحف ورشاته صارت أجمل هدية يمكن أن يهديها الناس لبعضهم في عواصم الحب، دون حاجةٍ لقطع آلاف الكيلومترات لشرائها..

وصلنا..

ركن سالم السيارة.. ونزلت..

هذا المكان الجميل.. يذكّرني بطفولتي، أكثر من أي مكانٍ آخر.. فالطفولة هي بعض اللعب وحميمية العائلة.. وبين هذه الأشجار، وفي زوايا هذا المنزل.. ربما كنتُ أكثر أطفال دمشق سعادة!!..

كان والداي هنا، عاشقين يغزلان الحب والرقة.. آخرين مختلفين عنهما في المدينة.. يطبخان سوياً من خيرات البستان، ويمرحان معنا، ويقطفان التوت فيأكلان معظمه.. لكأني أراها تتكئ بظهرها الممشوق إلى جذع شجرة الجوز، وعادل قد غفا في حضنها باسطاً قدميه على العشب الغض.. هي مشغولةٌ بكتابها.. وهو في سرقتها من الكتاب..

ولذا لم أتعجب حين قرر دفنها هنا.. ما كان ليستطيع حتماً دفنها في مقبرة العائلة.. ولو استطاع ما كان ليفعل.. أراد لها الرقود بسلام تحت الأرض التي ملأتها حباً وفرحاً.. زرعتْ فيها ياسمينها، وقطفتْ منها فاكهتها، ومارستْ فنَّ الحياة كطفلةٍ لا تبحث عن مزيد..

قطعتُ الحديقة أجرجر ذكرياتي كظلالٍ ثقيلة.. والتففتُ إلى الفناء الخلفي حيث قبرها..

آثار أقدامٍ حديثة على الطين الرطب..
هو عادل!!..
ابتسمتْ..
كنتُ أعلم أنه هو!!.. فلطالما كان هو.. ولطالما سبقني بالحنين إليها!!
سيظلُّ رجلي الأول.. مهما مرَّ في حياتي رجال!!.. وسأحدثهم جميعاً عنه.. فلطالما أذهلني به!!..
على كتفه أدمعتُ ذاك النهار.. من عظيم الحزن والفرح!!
******

دمشق / يونيو - 2002

«سالم، اليوم عيد الحب!!».

بالطبع لم يكن!!.. لكنها شيفرة سرية بيني وبين سالم ليذهب فيمضي يومه مع خطيبته، ويتركني ليومٍ دمشقي بامتياز..

«باب توما لو سمحت..».

ولِمَ لا؟!.. حتى لو كان أبي من أغنى تجار دمشق، ولو كنتُ ثريةً من سكان «أبو رمانة».. وحتى لو اكتظت خزانتي بأغلى الثياب المستوردة والمجوهرات الباهظة.. سأظل بسيطة بنسغي!!.. أحب النزول إلى الشارع بالجينز الذي اشتريته من محلٍ للبضاعة الوطنية- في أحد أزقة شارع الحمرا- وفاصلتُ في سعره أكثر من ربع ساعة فانخفض لنصف الثمن.. وأجد متعةً في السير، ومدِّ ذراعي لإيقاف تكسي تقلّني بأقل من ساعة من هوة الترف الذي أعيشه إلى قمة البساطة التي أعشقها..

وما أجملكِ يا دمشق!!.. وإني لأعجب كيف أحبتْ أمي عليك روما.. وأنتِ بكل هذا الحسن وكل تلك العراقة!!..

من جانب باب توما الأثري الطاعن في الأزل.. أحبُّ الدخول إليها.. فكلما لمحته تراءى لي أولئك القادة العظماء الذين وقفوا على أسوار دمشق فاستعصتْ على جيوشهم أبوابها.. وحين فتحها البعض بعد عناء، زادتهم دمشق بعظمتها مجداً وقوة..

ليس ثمة أجمل من التيه في أزقتها القديمة، الملتوية كأعجوبة.. فكل ما فيها يسلب الروح ويلهب الشغف!!..

حجارة البازلت الأسود المرصوصة في شوارعها.. جدران بيوتها الشرقية المعمرة ألف عام.. ياسمينها العابق في الأرجاء.. محلاتها المتواضعة الصغيرة بكل قطع الأنتيك والأرابيسك والصدفيات.. رائحة شراب التوت الشامي، والخبز المحلى بالقرفة، ولفافات «البليلة».. خطوات العشاق.. جدالات المثقفين.. ضحكات الأطفال وأصداء الذكريات..

لا يمكن أن تشعر بالخوف أو الوحدة هنا.. فلو انشغل الآخرون عن وجودك ترى التاريخ ملازماً إياك كظلٍ دافئ يطمئنك برفقته.. حتى إذا وقفت على كتفك حمامة أو سمعت هديلها، وصلت إلى «المسجد الأموي» محاطاً بمئات القاطنين والسائحين والعابرين.. وأمامه ساحة فسيحة مستديرة، منتهيةٌ بأعمدة رخامٍ شاهقة تعلوها كؤوسٌ مزخرفةٌ لمعبد «جوبتر» الدمشقي..

وكعاشقٍ تحتار، أي وجهةٍ تختار!!..

فعلى اليسار تطل المكتبة الظاهرية التي أشادها الظاهر بيبرس صرحاً للثقافة في عصره، وإلى اليمين قلعة دمشق وضريح البطل صلاح الدين.. فلو أكملت طريقك إلى الأمام، اخترتَ الولوج إلى سوق الشرق «الحميدية» الممتد ميلاً من الروائع والدهشة، والمتفرع عشرات الأسواق الأخرى..

لا شك أن فتاة دمشقية مثلي، تختار التسوق الممتع الذي لا مثيل له في كل أسواق العالم.. عباءة حرير مطرزة من هنا.. وفانوسٌ نحاسيٌّ من هناك.. خاتمٌ مرصعٌ بالفيروز الأزرق.. وسكاكر «قباقيب غوار» الملونة.. ولا بد من بعض الأقمشة الآتية من الهند وبخور مكة ورقع الجلد المدبوغة في مصر..

كل الدنيا تتراكم في هذه البقعة الأزلية.. ليس فقط حضاراتها وثقافاتها، بل شريط ذاكرتها.. إذ ينقلك من صورة لصورة.. لتجد نفسك عدتَ طفل الرابعة الواقف أمام «بكداش» بانتظار «بوري البوظة بالفستق».. وصبي السابعة المشدود لواجهة محل أدواتٍ موسيقية الحالم باقتناء عودٍ مصدّفٍ أو قيثارة مزخرفة.. ومراهق الثالثة عشر المفتون بجمال السائحات الغربيات.. إلى أن تعود لعمري فتشتهي الحب على طريقة دمشق وحبيباً يهديك طوق الياسمين من بائع الورد، أو يكتب اسمك في قارورة رميلة، ويشدك من يدك إلى سوق العرائس.. ولربما تكبر أكثر فيستوقفك بائع «السوس» أو «التمر الهندي»، ترتوي بمشروبٍ بارد ينسيك شقاء السنين قبل أن تمضي إلى قهوة متطرفة لتكمل فيها قراءة الجريدة وترمي زهر الحظ مع شريكك في لعبة «محبوسة».

هذي دمشق التي أعشق!!.. وكل من زارها يعشق!!.. وحمل تفاصيلها معه أينما ذهب، يقيناً منه أن لن يعثر على مثلها أينما ذهب!!..

- غادة .. غادة ..

العم جهاد.. تصادفتُ به يحمل صحن «فول مدمس» وأرغفة خبز ساخنة.. لم يتناول فطوره بعد، وأنا أيضاً..

- نوّر السوق يا ابنتي !!.. تفضلي الفطور جاهز .. وأحلى كاسة شاي لأميرة الشام !!..

مضيتُ معه إلى محلنا، وتأملتُ بفضولٍ ملامحه طوال الطريق..

هذا الرجل الوقور يكبر عاماً بعد عام فيزداد غموضاً كهذا السوق!!..

قبل أكثر من ثلاثين سنة.. كان أبي صبياً هنا في الحميدية.. كان موهوباً بالتجارة.. ودوداً لماحاً يتكلم بعض الإنكليزية والفرنسية والإيطالية،

رغم أنه لم يكمل دراسته.. عمل منذ طفولته في أحد محلات والده الكثيرة.. وفي أقل من سنة أتقن أصول البيع والشراء وبدأ بتطوير الورشات وتثقيف العمال وتحسين أجورهم وجذب أبنائهم لتعليمهم المهنة.. وكان العم جهاد أجيراً أساسياً آنذاك في المحل الرئيسي في الحميدية..

جهاد هذا.. كان شاباً فقيراً من عائلة متواضعة، يتيم الأب كثير الأخوة.. اضطر للعمل في السوق لإعالة عائلته وإكمال تعليمه.. لم يعجبه الأنتيك يوماً ولم يفهم فيه.. لكن أمانته وحسن خلقه منعا جدي من طرده.. رغم كره عادل الشديد له ورفضه إياه.. ومع مرور الأعوام ازداد عادل فطنةً ودهاءً، وبدأ جهاد بمجاراته.. إذ دخل كلية الاقتصاد وصار ولوعاً بالتجارة.. لكن الخلافات بينهما ازدادتْ مع العمر تعقيداً وضراوة.. فبينما كان الأجير متواضعاً خجولاً ملتزماً، مُقلَّ الكلام.. كان أبي منفتحاً مقبلاً على متع الحياة، ومسرفاً في الصرف، محباً للبذخ..

«إلى أن جاءت آريللا!!».. كما روى لي العم جهاد..

«كان الوقت ظهراً، ولم يرفع الآذان بعد.. قمتُ فتوضأت وجهزتُ للصلاة.. فتحتُ المصحف لأقرأ ما تيسر لي ريثما يحين وقت ذهابي للأموي.. فإذا بي أراه مقبلاً عليَّ بوجهٍ محتقنٍ وعينين جاحظتين.. شد القرآن من يدي ورماه على الطاولة.. ثم أحكم قبضته على عنقي.. كان والدك طويلاً جسوراً قوي البنية، وأنا كما ترين يا ابنتي هزيل القد ضعيف الحال.. صرخ بي: ألا تخجل يا رجل؟!.. أعوامٌ وأنت تأكل من خير هذا المحل.. كبرتَ على حسابه.. ربيتَ إخوتك على حسابه.. درستَ على حسابه.. انظر إلى باقي الفروع.. انظر كم زبوناً فيها وكم ألف قطعةٍ في اليوم تبيع.. وأنت حوّلتَ المكان إلى مسجد.. لا أراك إلا متحضّراً للصلاة أو مقبلاً منها.. كم صلاةً تصلي في اليوم يا رجل؟!.. ومن قال لك إن المحل مفتوحٌ للعبادة!!.. ما رأيك بفرش بعض السجاد على الأرضية لتؤمَّ بالناس هنا؟!..».

«هداك الله يا عادل!!».. تنهد، فلمعت دمعةٌ على طرف جفنه.. ثم أكمل..

«هزَّ صوته الشارع كله، وجيراننا تعوّدوا صراخه فما اهتموا بفض الخلاف.. ولكن يومها، جاءت أمك لتفضَّه!!..».

ضحك، وصبَّ لي كأساً من الشاي المخمر، ثم جمع ما تبقى من الفطور، غلّفه وحمله للداخل.. غاب دقيقتين وأنا على جمر انتظاري أترقب التتمة.. مع أنه قصَّ لي هذ المشهد عشرات المرات.. لكن توقي لا يقل في مرة عن سماعه.. فمع كل رواية، يضيف تفصيلاً جديداً أجهله..

سحب كرسي الخيزران إلى باب المحل، وضع قدح الشاي على الأرض قربه وجلس بفتور.. شرع يدخن ويتذكر.. وأحسب أن الدخان النافث خرج من فمه وذاكرته.. فذاكرتنا كلفافة تبغٍ تحترق وتختنق.. وكلما بُحنا بتفاصيلها.. أجّجنا دخانها!!..

«أتسبّه لأنه يعرف الله فيتلو كلامه ويصلي لشكره؟!.. انساب صوتها كفوح عطرها ندياً ملفتاً.. فاستدرتُ وعادل إليها.. كانت تقف هنا حيث أجلس الآن.. أبهى من كل الحسناوات اللاتي مررن قبلها.. ترتدي فستاناً قصيراً أخضر اللون وصندلاً عسلياً مفتوح الأصابع، وتربط إلى خصرها حقيبة جلد صغيرة، كان في يدها أكياسٌ كثيرة كأنها تبضعت السوق كله، أسقطتها على الأرض بغضب، وخطتْ نحو عادل.. وقفتْ أمامه أميرةً إغريقية.. كاملة الأنوثة.. ساحرة العينين.. رشيقة كغصن البان.. كانت ملامحها تنطق جرأة وأصابعها تثور في وجهه وترسم في الهواء قصائد من نار.. ثم بدأت بسرد كلامٍ مطولٍ عن الحريات والكرامة وحقوق العمال على مسامع عادل الصماء.. فقد صار كيانه إلى عينين من عشقٍ وشهوة.. التهمها بنظرة!!.. نعم.. كانت آريللا أقرب لأن تُشتهى من أن تُسمع.. فجمالها أوضح من كلامها، وعيناها أصدق من حروفها، وقدّها أجرأ من كل الشعارات!!.. زفرتْ غضبها كله، سرقتْ قلبه، لملمتْ أكياسها المبعثرة، نفضتْ شعرها إلى الخلف، وخرجت..».

لم أكن أعلم أن للعم جهاد قدرة على قنص التفاصيل وحفظها عشرات السنين.. أو أن رجلاً ورعاً مثله يجيد وصف تحفةٍ أنثويةٍ كأمي.. وأخاله لا يذكر لقاءه الأول بزوجته كما يحكي بسلاسة عنها..

قام عن كرسيه، دخلتْ زبونة.. طبعتُ قبلةً على خده وخرجت..

الساعة الواحدة ظهراً.. أمكنني التجول لساعتين إضافيتين قبل موعد الغداء في بيت عمتي سلمى..

«سلمى» هي أصغر عمّاتي الثلاث..

أكبرهنَّ «خديجة».. زوّجها جدي في الثالثة عشر من عمرها، لتاجرٍ من تجار الصوف في حماة.. ويقول عادل إنه بالكاد يتذكرها.. فقد كانت هادئة بطبعها.. وزواجها المبكر غيّبها عن ذاكرة الجميع.. لا سيما وأنها كانت مقلةً بزياراتها العائلية.. فقد انشغلت بالولادات الكثيرة، إذ أنجبت تسعة أبناء.. خسرت اثنين منهما بمرض السل في عمرٍ صغير.. وثلاثة شباب دفعة واحدة في أحداث حماة أوائل الثمانينيات.. ومنذ ذلك الوقت.. لم تأت إلى دمشق.. أو أنها بالأحرى لم تخرج من منزلها البتة، ولا استقبلتنا فيه..

أما «فاطمة».. واسطة العقد ودرّته النفيسة.. فقد وقفتْ في وجه جبروت جدي كسنديانةٍ باشقة ورفضت الزواج مرات كثيرة.. حتى ظنّ الناس أن فيها عيباً أو مرض.. وانقطع الرجال عن طلبها.. ولعلها كانت حيلتها لتكمل الدراسة الجامعية وتتخرج من كلية الحقوق بتفوق..

روت لي «سلمى» عن اليوم الذي أتتْ فيه شقيقتها إلى جدي بشابٍ فلسطينيٍّ من سكان «المخيم».. أحبها وتمنى طلب يدها.. فطرده جدي ورفض استقباله.. قالت لي إنها لم ترَ أباها أكثر غضباً من ذاك اليوم.. دخل إلى غرفة فاطمة وأشبعها ضرباً بكرباجه، ثم حلق شعرها أمام البركة، وربطها في علّية المنزل لشهرين كاملين..

كان الحب بالنسبة لرجلٍ مثله.. أقبح من الزنا.. وما زاد ذاك الحبَّ سوءاً، إنه لشابٍ مشردٍ بلا نسبٍ ولا هوية.. لا يملك في الحياة إلا شهادة الحقوق التي لا تعني لتاجر عتيقٍ كجدي أي شيء..

أتذكّر رواية سلمى عن شقيقتها الوسطى بكل مواجعها.. حين قالت..

«حرّم عليَّ البكاء لأجلها أو التشفّع لها.. هدّدني بالربط جانبها لو رأى طيف حزنٍ في وجهي.. كنتُ أصعد إليها ساعة الفجر عند ذهابه للمسجد، فأجدها أكثر جمالاً من اليوم السابق.. بشوشة الوجه، براقة العينين.. تشرب بعض الماء وتأكل بعض الخبز والعنب.. كم كانت تحب العنب الأخضر من عريشة الدار!!.. كانت تأكل حبات قليلة، وترجوني النزول قبل عودته.. فأقبّلها وأعود إلى فراشي.. أدسّ رأسي تحت المخدة، أتذكر وجهها وأبكي.. كل شبرٍ منها تلوّن- من الضرب المبرح- بلون.. ورأسها خسر جديلته السوداء الطويلة.. وعلى خدها الأيمن جرحٌ ملتهبٌ حتى لو برئ سترافقها ندبته إلى الأبد.. كل هذا وكان بوسعها أن تبتسم وتزداد جمالاً!!.. كنتُ أحسدها على عزلتها.. فمعها الحب والحرية.. أما أنا في غرفتي.. لا أملك إلا مخاوفي وغبار كبتي..».

أفكر في حديثها.. وأتعجب كم كان جدي ظالماً!!.. هان عليه أن تموتَ ابنته على ما يشتهي، من أن تعيش على ما تشتهي.. لكنها لم تمت كما خطط لها.. بل هربتْ في ليلة ما، قبل موعد العنب!!.. وظلَّ عارها معه حتى آخر أيامه، ليزيده بؤساً وقسوة.. ثم بعد ستة أشهر من الغياب، كتبتْ لأختها سلمى رسالة سريةً مطولة تخبرها أنها تزوجت من ياسر- حبيبها- وهاجرتْ معه إلى كندا.. وأنها تنتظر مولودها الأول بفارغ الصبر.. وأنها اشتاقت لجدي!!..

وتبقى «سلمى» التي هي بالنسبة لي كل عائلة أبي.. فأنا لم أعرف

جدي ولا عمتيَّ الغائبتين.. وحتى من جهة أمي ليس لي أقرباء..

«سلمى» كانت ولا زالت صديقة عادل الوحيدة والمفضلة.. كبر على دلالها وحبها.. وعندما عصا جدي وتزوج أمي.. قاطعته لأعوام.. ليس تضامناً مع جدي، بل لزواجه دون علمها، وقد كانت حافظة أسراره ورفيقة حاله.. فمن هي آريللا هذه، لتسرق منها أخاها وتحرمها صديقها؟!.. ومتى أحبها لدرجة التخلي المطلق عن الجميع سواها؟!..

لم تغفر له ذنبه العظيم.. إلا حين قررتْ أمي زيارتها.. كنتُ وسارة طفلتين صغيرتين بالكاد نخطو.. ذهبتْ بنا ذاك النهار، بغفلةٍ عن عادل.. استدلتْ عنوان عمتنا.. وزارتها دون موعد!!..

آهٍ من الذاكرة كم فيها مآسٍ!!.. وكيف تنسال على جبين العمر في عبورٌ واحد لهذا السوق..

كنتُ على شفا النسيان في ذاك اليوم الدمشقي.. إلى أن لمحتُ بائع الجرائد يسير بقربي.. حولان انقضيا ولم أنس قصتي مع هذا الصبي!!.. ما زال يرتدي القميص المتسخ ذاته مع أنه ضاق عليه..

مرَّ قبل عامين أمامي.. نادى يومها.. «يا حباب.. صدور نتائج المفاضلة للجامعات..».. فاستوقفته بحماسة، واشتريت جريدة.. قلّبت صفحاتها بفرح.. فقد أتخمني الظن أملاً بقبولي في كلية الطب، لكن خوفي كله كان على سارة.. شعرتُ أن مجموعها المتواضع بالكاد سيسمح لها بارتياد المعاهد المتوسطة.. والحقيقة أنه لم يُبح لها حتى تلك الأخيرة!!

أخذتني رعشة.. وتذكرتُ كيف سقطت الجريدة من يدي ذاك النهار.. وسقطت معها أجنحتي.. فسارة لن ترتاد أي جامعةٍ أو معهد.. وأنا لم أقبل في جامعة دمشق بل في جامعة اللاذقية.. عنى ذلك لي حكماً قاطعاً بمفارقة دمشق.. أو تنازلاً عن حلم الطفولة بأن أصير طبيبة..

جُلّ السحر الدمشقي يومها، تحوَّل إلى ضجيج لا يطاق.. أصوات الناس.. صراخ الباعة.. بكاء الأطفال.. وصار السوق سجناً ضيقاً بقبة حديدية منقّبة أتوسل الفرار منه زحفاً على ركام أحلامي..

نحن لا ننسى بعض الأشياء بسهولة.. والعام 2000، سيعلق بي فلا أنساه.. لا لكونه بداية ألفية جديدة.. بل لأنه كان حاسماً مختلفاً.. فسنته الدراسية صعبة، انتهت بامتحانات متعسرة.. إذ تم تأجيلها على إثر وفاة الرئيس «حافظ الأسد».. وككل البيوت السورية، تأثر جو المنزل بحدث الوفاة المفاجئ.. كان أبي قلقاً متوتراً خائفاً على تجارته من الحكومة الجديدة.. وسارة التي بالكاد تدرس، وجدتْ حجة مقنعةً لعدم المثابرة..

لكنني حين أغوص لعمق تلك الفترة أكثر.. أشكر الله أن الأزمات مرّت على خير.. فأنا وصغيرتي تقدمنا لامتحانات الثانوية ونجحنا.. كذلك أبي لم تتأثر أعماله، بل ازدهرت..

قبل عامين اثنين، وعلى حجارة هذا الرصيف، انطوى جسدي كورقة خريفية ذابلة من خيبة المُنى.. ما كنتُ جاهزةً لمصير المفارقة.. ولا مُدركةً أن سارة ستسعد بنتيجتها المخزية إذ استبقَتْ فشلها بخطةٍ بديلةٍ مرضيةٍ للجميع.. كانت قد خططت العمل مع عادل وطلبتْ منه أن يرسلها إلى لندن، لتتقن الإنكليزية وتتعلم بعض مهارات التسويق.. أفصحتْ لنا ذاك اليوم عن شغفها بتجارة الأنتيك وصناعته.. وكم ستسعد لو وافقها أبي وتركها تتقنه بسرعة فتدير أعماله في أوروبا..

وعادل.. كما اسمه.. عدل معنا في كل تفاصيل حياتنا.. لان في اختيارنا لمصائرنا.. فتركني أغادره ومدينتي إلى جامعة ومدينة جديدة.. وشارك صغيرته المدللة في تجارته وطموحها..

كانت سارة جريئةً كأمي.. ففي الوقت الذي اكتفى فيه عادل لسنوات، بتطعيم قطع الأنتيك ألماساً نقياً أو غمسها في الذهب.. أقنعته شقيّتي باستخدام الكريستال الحديث «شواروفسكي».. واستحدثت خط إنتاجٍ جديد للمجوهرات.. وأجرتْ بحثاً طويلاً عن أهم الأسواق العالمية لبيع الأحجار الكريمة.. فصارا يترافقان إليها.. يتعرفان إلى التجار، ويستدلان منهم على أنقى الفصوص وأندرها.. فيطوفان الهند وباكستان لشراء العقيق والياقوت، وألمانيا وأستراليا بحثاً عن الزمرد والفيروز، وبعض ولايات أمريكا من أجل قطعة لازورد، ويقتنيان من دول الخليج العربي مرجانه ولآلئه النفيسة..

ويوماً بعد يوم.. كنتُ أبتعد عنه.. وتقترب هي أكثر.. حتى وصلنا إلى تبادل الأدوار الغير متوقع.. وصار رأيها ينافس رأيي عنده، ويغلبه في معظم الأحيان..

******

من الحميدية.. وصلتُ إلى المنزل متأخرة.. كان عليَّ تغيير ملابسي بسرعة فأبي على وصولٍ ليقلنا إلى الغداء.. ارتديتُ أول فستان صادفته، وتزينتُ كيفما اتفق..

عشرات الذكريات تفجرتْ في رأسي من جديد، وحاكتْ خيوطها حولي.. فرحتُ أدور في الغرفة وكأن كل الكون من حولي يدور.. وكأن كل الأفكار تحولتْ إلى دوائر مغلقة، تضيق أكثر فأكثر، لتنال من اتزاني..

رن الماسنجر.. «آه!!.. رسالة جديدة..».. تفاصيل اليوم أنستني أن أكتب له..

«أينكِ عصفورتي؟!.. فتر فنجان قهوتي السابع، ولم تأتِ بعد يا قطعة السكر.. قد تأخرتِ، وموعدنا تذمّر!!».. كتب لي..

«في متاهتي اليومية.. لو كنتَ هنا لكان كل شيءٍ أسهل وبالضرورة أجمل.. أحبك..» كتبتُ له..

عوّدني «عاصم» أن يقول لي كلما تحادثنا على الماسنجر، أنني قطرة السحر التي تحوّل كل ما هو عادي إلى حلم.. وأنه يحبّ هذا الحلم ولا يريده حقيقة.. فلا شيء يقتل أحلامنا أسرع من تحقيقها!!.. وثلاثية الحب والشوق والأمل، تثيره أكثر عن بعد.. وأنه لا يرغب في لقائي فهو يراني في مخيلته أقرب إلى عصفورة الصباح وحورية المساء.. ولا أنتمي في قاموسه لفصيل النساء..

أحببته.. هكذا دون مقدمات..

فأنا أيضاً، لا وقت لدي لمتاعب الحب ومنعطفاته.. ولا تغريني اللقاءات السرية، أو القبلات المسروقة، ولا حتى الهدايا المغلفة بورق الجرائد كيلا يلاحظها أحد..

في حبه كنت أشعر أنني أخرى.. أنني حرة.. وهذا ما كنتُ أريد..

«غادة.. سارة.. تأخرنا!!..».. نادانا عادل للمرة الثالثة.

نزلتُ الأدراج على عجل.. أردتُ الوصول قبلها.. لكنها سبقتني إليه.. وطوال الطريق، لم تسكتْ ثرثارتي لحظة.. تحفظ آلاف النكت وتتذكر أشياء لم ألحظها أنا حتى.. ومهما تجنبتُ سماعها تجذبني بضحكتها وعفويتها البريئة..

أراقبها وهي تملأ السيارة حياة وبهجة.. كم أنا غريبةٌ عنها.. لا أشبهها في شيء.. هي أجمل مني بأضعاف.. أكثر جاذبية، أشد ذكاءً.. وأعمق وضوحاً.. تقول ما تعني، وتفعل ما تريد..

عندما رآها عادل مرة تتراشق ماء البركة مع ابن البستاني، نفضتْ ثوبها المبلل بمرح وأكملتْ لعبها دون خشيةٍ أو خجل.. ويوم أرسل لها «إياد» - زميلنا في الثانوية - وروداً حمراء في عيد ميلادها، ابتسمتْ في وجه أبي وقالت «يبدو أن أحدهم يحبني!!».. حتى في لحظات التوبيخ والعتب، تعوّدتْ أن ترمي لنا قبلةً في الهواء على سبيل الاعتذار.. ولا تعتذر..

كنتُ ذاك اليوم.. أكثر حماسةً لزيارة سلمى.. فقد وعدتني إذ هاتفتها بأكلة «محاشي»، وبمفاجأة أخرى..

وقتها كنتُ أحب المفاجآت!!..

أمام شقتها وقف أبي حاضناً سارة بذراعه، وماسكاً يدي بيده الأخرى.. رن الجرس وانتظرنا أكثر من دقيقة.. رائحة الأكل النافذة من الشقوق تثير الشهية، وبريق النظافة يحتفي بنا من على باب منزلها كالعادة..

- أهلاً وسهلاً ..

رحَّب بنا رجلٌ غريب..

- عفواً .. منزل أحمد مقدسي؟ !..

تعجّب عادل..

- آه .. نسيتني يا خال؟ !..

زمَّ فمه بخيبة..

- مصطفى !!..

أفلتني وسارة من يديه.. واقترب منه خطوة..

لفَّ ذراعاً حول رأسه وضرب بقبضته الأخرى على صدر مصطفى متأثراً..

- يلعن أبو الغربة !!..

تنهد باكياً..

«يلعنها ألف مرة!!..».

جاء صوت العم أحمد من الداخل.. كان وسلمى يراقبان العناق..

- تفضلوا ..

نظر إلينا مصطفى مشيراً للداخل..

- آه .. هذه سارة .. وهذه غادة .. ابنتاي ..

أعادنا أبي لحضنه من جديد..

- ما شاء الله .. صاروا صبايا .. غادة تراسلني في الأعياد والمناسبات، ولكن سارة ..

نظر إليها بصمتٍ عارم..

- تفضلوا .. تفضلوا !!..

كرّرها علينا..

جلسنا إلى مائدة عمتي العامرة بأكلاتها كعيد طارئ..

قبل يومين اثنين هاتفتها فسمعتها تشكو أعراض الهم والكبر.. لكن عودة مصطفى أعادت لوجهها نضارته، ولصوتها رنته الآخاذة..

نظرتُ إليه.. بل لعلني في تلك الظهيرة.. أمعنتُ النظر إليه.. لأحفظ تفاصيله.. قد تغيّر كثيراً عما أذكره..

هذا الناضج البهيّ الطلّة، ذو الكتفين العريضتين والعينين الغامقتين الغامضتين.. لا يشبه ابن عمتي النحيل، كثير البثور، أجعد الشعر.. حتى نبرة صوته تبدلت.. غدت أكثر عمقاً ودفئاً.. وضحكته اللذيذة، أكثر جاذبية.. قد كان لحوحاً كثير الكلام، لكن إصغاءه صار كحضوره أشد اتساعاً.. انحناءة ظهره، أصابعه النحيلة.. رائحة دهائه وهدوؤه الفاتن..

حين كنا صغاراً.. كبِرني وسارة بتسعة أعوام على الأقل.. وكانت كافيةً ليستعرض على بساطة طفولتنا ثقافته وعلومه.. أتذكر كم روى لنا عن أنبياء الله وفلاسفة أثينا، وكم حشا رؤوسنا الصغيرة بأسماء وأرقام عن رسامي إيطاليا وعباقرة ألمانيا وشعراء العرب.. وكيف كان يذهلنا بالتجارب العلمية المنزلية في قبو منزلهم كلما زرناهم..

كان قريب أمي المحبب.. وهو أيضاً أحبها.. تعود أن يطلب منها في كل زياراتنا العزف معه على البيانو.. فيتجاوران على الكرسي الصغير أمام الآلة الضخمة.. تميل عليه برأسها، ليمرر ذراعيه النحيلتين من تحت ذراعيها ويعزف النوتات..

يوم خسرناها.. كان قد التحق بجامعة «العلوم والتكنولوجيا» في الأردن لدراسة الطب البشري.. وعندما بلغه الخبر.. عاد دمشق مفجوعاً في ذات المساء، ليشارك في دفنها..

انتهينا من وليمتنا، وجلسنا نحتسي الشاي ونتناول فطيرة التفاح الشهية التي اشتهرت سلمى بإعدادها في المناسبات الخاصة..

نظر إليَّ مصطفى بطرف عينه.. قطع شرودي..

- ها .. طمنيني .. كيف هي الجامعة؟ !..
- الحمد لله .. المواد كثيرة، لكن دراسة الطب ممتعة ..
- لو استشرتني .. كنت لأتمنى أن تدرسي أي فرع آخر .. ولكن لا بأس أن تجربي ..

أجرّبْ!!.. على سبيل افتراضه احتمالية فشلي؟!..

- لا يا مصطفى .. غادة متفوقة في دراستها، وستثبت جدارتها ..

غمزته العمة سلمى، وعضّت طرف شفتها ليصحح رأيه..

- لتصبحي طبيبة ناجحة عليك أن تضحي بكل شيء آخر .. انظري إلى حالي .. أعيش في شقتي الصغيرة في كليفلاند وحيداً بعيداً، بالكاد أتذكر أنني على قيد الحياة .. هكذا هم الأطباء .. لينقذوا حياة الآخرين يخسرون حياتهم !!..

تنهد آسفاً..

فكان أن قفزتْ سارة من كرسيها.. جلستْ على طرف كرسيه بدلال، ولفتْ يدها حوله.. ثم قالت له..

– اسمع .. لك عندي عرضٌ يغريك .. أنا وعادل نفكر بافتتاح فرعٍ جديد لبيع الشرقيات خارج أوروبا بغرض التوسع .. خططنا لرحلة تجولٍ تبدأ بعد غد بين كوالالمبور، بومباي، وسدني .. يومان في كل عاصمة .. سأعطيك خمس دقائق لتفكر في مرافقتي بدل شريكي ..

نظرتْ إلى عادل المتعجب مثلنا جميعاً.. وغمزته بكلتا عينيها الصافيتين.. ثم قالت له..

– آه عادل !!.. لا تنظر إليّ هكذا .. أنت وعدتني أن يكون هذا الفرع مشروعي .. إذاً أنا حرة في اختيار مرافقي .. أشعر أننا بحاجة هذه المرة لاستشارة من نوع مختلف .. أو لوجهة نظرٍ جديدة .. ما رأيك؟ !..

ضحك أبي وكذلك مصطفى والعم أحمد..

– أنا لست موافقة .. أنتظره خمس سنوات، ثم تأتي هذه الشقية فتخطفه مني بخمس دقائق !!

اعترضتْ سلمى.. وعلى وجهها لون ابتسامة..

– مع أن الفكرة أعجبتني، ما لم يمانع خالي ..

ردّ مصطفى..

– خالك يتمنى .. فلديه الكثير من الأعمال لينجزها هنا ..

غمزته سارة.. فاحمرَّ وجه مصطفى خجلاً.. كان قد وقع في حبها منذ تلك اللحظة!!..

ظلَّتْ لأكثر من نصف ساعة تسرف بحديثها، وهو يدرسها بشغف، لا يريد لها أن تنتهي..

وعَدَته برحلةٍ لن ينساها.. محفوفةٍ بجمال ماليزيا وخضرتها العارمة.. بعراقة «تاج محل» وصخب الألوان والنكهات الهندية.. وبأمسيةٍ رائعةٍ بـ«دار الأوبرا» في سيدني..

كان في نظرته إليها.. ما تمنيتهُ لنفسي.. وكنتُ أحسبه سيميل للحديث وقضاء الوقت معي، بحكم دراستنا المتشابهة.. لكن رجلاً منهكاً كمصطفى.. ما كان ليقاوم مغنطة سارة، وجاذبيتها في الحديث وطرح المفاجآت..

لن يرغب رفقتي الراكدة، وأحاديث الطب والفلسفة.. لن يعثر في ملامحي العادية ما يغري رجولته ويلهب نزعات الغزل.. فأي رجلٍ هو ليتجاهل جمالها.. ويتناغم مع اعتياديتي؟!..

«سيلهث عمره خلف سارة.. سيحبها.. ولن يكترث لوجودي!!..».. واسيتُ

نفسي..

وافقت عمتي سلمى بعد جدالٍ على سفره لستة أيام.. على أن يمضي باقي إجازته معها في دمشق.. بينما افتتح أبي والعم أحمد لعبة «محبوسة» على الشرفة المنتعشة بياسمينها.. كانا سعيدين بما لمساه من كيمياء بين الأبناء قبل قليل.. يرميان الزهر على لوح الخشب.. يحركان الأحجار.. ويتهامسان ثم يضحكان..

******

ذاك المساء.. أمضيته بكتابة قصيدة.. أرسلتها لعاصم على بريده الإلكتروني، وانتظرتُ ردّه حتى الفجر.. لكن النعاس سبقه إليّ.. ورغم الوسن لم أنم..

رغبتُ النوم بشدة.. كي أطرد طيف مصطفى من مخيلتي.. فما أجداني كوب الحليب الدافئ، ولا التفكير في عاصم.. ولا حتى عد الخراف اللامنتهية..

قمتُ من السرير.. أشعلتُ الأنوار.. نظرتُ إلى نفسي في المرآة.. وضعتُ نظارتي الطبية، وكررتُ النظر..

لاحظتُ لأول مرة عدم التناسق بين حاجبي.. شحوب بشرتي.. وحاجة أنفي لعملية تجميل.. اقتربتُ من المرآة أكثر.. نثرتُ شعري على كتفيَّ، ربما لو كان أحمراً أو أصفراً لناسبني أكثر.. ولم هو باهتٌ هكذا؟! ربما يحتاج لحمام زيت، أو جلسة كيراتين..

ثم استدرتُ إلى خزانتي.. فتحتها.. تأملتُ ملابسي قطعةً قطعة.. كل ألوانها غامقة، وقصّاتها متشابهة، لا تحمل أي طابعٍ أنثوي.. وتذكرتُ أن ليس لدي أيٌّ من مساحيق التجميل الكثيرة التي عند سارة، فلا تستهويني رغم أناقتها وسحر مفعولها.. أمسكتُ زجاجة البارفان الشبه فارغة، هي ذاتها.. لم أغيّرها منذ أعوام!!..

مسّني غضب فأطفأتُ جميع الأنوار.. اشتقتُ لظلامي..

هي ليست أنا.. ليست أفكاري.. ولا طبيعتي!!..

ما يعني أنا أكون جميلةً في نظر مصطفى أو غيره؟!.. ولم عليَّ تغيير نفسي لإرضائه، أو دفن بساطتي تحت الأثواب الملونة ومساحيق التجميل وطلاء الأظافر كي يلاحظ أنوثتي؟!.. ولِمَ أهتم أن يراني أصلاً؟!.. أنا أحب عاصم وهو يحبني كما أنا.. لا يهتم بجمال مظهري.. قد أحب فيّ ما هو أعمق!!..

استلقيتُ على السرير.. تقلّبت يميناً، شمالاً.. نمتُ على بطني، على

ظهري.. ربما أحتاج لتغيير المخدة.. رميتها على الأرض واستخدمتُ أخرى.. ربما عليّ تجديد الملاءة، فيها رائحة غريبة.. قمتُ فأحضرتُ واحدة نظيفة واستبدلتها.. عدتُ لمحاولة النوم.. وظللتُ أبحث عن أي سببٍ يعيق نومي غير مصطفى، دونما جدوى!!..

لكن رياح الرجل الغريب.. لم تعصف عليّ وحدي.. فشقيّتي أيضاً لم تنم.. تسللتْ إليَّ بهدوء.. وفي يدها شيءٌ تخفيه..

ابتسمتُ لها.. وتذكّرتُ حين كنا في الثانوية.. كيف كانت تهرب من غرفتها إلى غرفتي.. تنسل إلى سريري بخفة.. وتهمس لي «سرقتُ سيجارة من باكيت عادل!!..».

قد علمتْ أنها لو دخنتها في غرفتي، لن يلحظ أبي ذلك.. فهو لا يشك باستقامتي ورفضي لهكذا مشاغبات.. وكنتُ رغم غضبي من تصرفها، لا أمنعها.. فطريقتها في مسك السيجارة ونفث الدخان.. تذكّرني بأمي.. لكن أريللا كانت تدخن عندما تغضب.. على خلاف شقيّتي، عندما تفرح!!..

- معكِ سيجارة؟ !..
- بليز .. أحتاج إليها ..
- افتحي الشباك قبل أن تشعليها .. هيا ..

قبلتني، وقفزتْ إلى الشباك.. فتحته.. جلستْ على حرفه تدخن..

- أتظنينه يذهب معي مجاملة لي .. أم أنه حقاً يرغب بالذهاب؟؟ ..
- لا أعلم .. ما يفرق عندك؟ !..
- أريده كامل الإرادة .. خالص المشاعر .. متّقد الإحساس .. فما استبدلته بعادل ليجاملني ..
- أظنه يرغب بالذهاب .. قد كان بوسعه أن يرفض ..

لمعتْ عيناها في العتمة.. كانت والفجر يلامسها، تصير إلى منحوتة من شمع، وتحترق في شمعدان الحيرة..

الحيرة.. أول أعراض الحب.. تحتار وأنت على أتم الثقة، وتشك وأنت بقمة التأكد، وتذوب من الحرارة الداخلية التي اقتحمتك بلا استئذان.. تتألم منها.. وأنت راضٍ!!..

أنهتْ سيجارتها، وخرجتْ.. ليست من النوع الذي يحب الثرثرة عن مشاعره.. لا سيما هكذا مشاعر.. لازمتْ الصمت وهي في أمسِّ الحاجة للبوح..

الصمت.. ثاني أعراض الحب.. بدا جلياً عليها أيضاً!!

في الصباح التالي.. رقصتْ فرحاً عندما اتصل بها مصطفى، لترافقه في تبضّع بعض احتياجات السفر.. غابتْ معظم اليوم.. وعادتْ فارغة اليدين.. إلا من طوق فلٍّ نديٍّ اشتراه لها..

كانت أكثر خجلاً في المطار، وأكثر توتراً من عادتها.. ومصطفى أيضاً كان مثلها، يعاني الأعراض ذاتها.. ضمَّها أبي إليه بشدة وذكّرها ألا تتناسى حُقن الأنسولين.. ثم صافح مصطفى ووصّاه بها.. ودّعتهما بدوري.. تمنيتُ لهما رحلة سعيدة، كأيٍّ غريبين بالكاد أعرفهما..

وعندما رجعتُ إلى المنزل.. دخلتُ غرفتها.. لم ينضج الشوق إليها بعد.. لكن فيَّ ما رغب برؤية فوضاها.. سريرها الغير مرتب.. خزانتها المفتوحة.. ألعاب «الباربي» المعروضة هنا وهناك.. كتبها ذات العناوين الغريبة.. مجلات موضة وفن.. وعشرات السيديهات لمغنيين صاعدين.. تذكاراتٌ من هنا وهناك.. ولوح شوكولا بالبندق حاولتْ إخفاءه تحت مخدة..

غرفتها كأرض العجائب!!.. أو ربما هي أنا التي تعيش في كوكبٍ آخر.. تطالع ثقافةً أخرى.. وتحتفظ بأشياء تبدو بالنسبة لما هنا منقرضةً، من العصر الحجري!!..

عبثاً حاولتُ ترتيب المكان.. أطفأتُ النور، وخرجت.. تذكرتُ مكالمة الخالة «ديفيرا»، فقبل أسبوع تقريباً، كنتُ قد وعدتها بزيارةٍ إذا عدتُ لدمشق..

******

كذبتُ على عادل..

قلتُ له أذهب إلى المكتبة لشراء مراجع جديدة.. وقد كنتُ ذاهبةً إليها..

أخبرتني في اتصالها الأخير.. أنها غيرتْ مسكنها، لأن بعض الجيران رفضوا تعليقها الـ«مِزوزا» على باب الشقة.. بحجة أن أطفالهم بدأوا يسألون عن تلك القطعة الغريبة، ولا يريدون الخوض في هكذا تفاصيل مع أبنائهم.. شكوها لصاحب العقار، فطلب منها إيجاد سكن جديد.. ونصحها أن تراعي مشاعر جيرانها الجدد..

كانت حزينةً جداً، آسفةً على حالها، وكيف آلت إلى ذلك.. قالت لي.. «لم يكتبون الشهادتين على أبواب منازلهم، ويرفعون صوت القرآن أيام الجمعة، ثم يتذمرون من صندوقٍ صغيرٍ فيه قصاصة أدعيةٍ يحتاج عيناً ثاقبةً لتلحظه!!..».

المطمئن أنها عثرتْ على شقةٍ صغيرة بإيجارٍ مقبولٍ في حارة المسيحية –

حي برزة.. ونقلتْ ما سلم من الأثاث إليها.. إذ تعمّد عمال النقل إتلافه عندما رأوا نجمة داوود محفورةً على معظمه..

وصلتُ العنوان الموصوف بعسرٍ بالغ.. صعدتُ إلى الطابق السادس.. كانت قد اختارتْ آخر شقةٍ في العمارة، كيلا تكون طقوسها الدينية عرضةً للصاعد والنازل.. نظرتُ إلى يمين الباب.. فوجدت ذاك «الحجاب» العجيب، معلقاً كما السابق في شقتها القديمة..

استقبلتني بحفاوة، فاليوم سبت، يوم عيدٍ عندها.. رائحة خبز الـ«حالا» و«يخنة اللحم مع البطاطس» نافذةً من الشقة..

- غداؤك اليوم عندي .. لا أعذار !!

احتضنتني ودخلنا غرفة الجلوس..

سألتني عن سارة، وعن جامعتي، ثم قامت لتعد لنا القهوة..

رغم رفضي المطلق لقطع علاقتي بها، كما سألني عادل مراراً.. لكنني ومنذ اجتياح نابلس في أبريل الفائت، ما عدتُ أرغب برؤيتها، كيلا أدخل معها بنقاشٍ أخسرها بعده..

آلمتني رؤية البلدة الأثرية القديمة تنتهك بكل تلك الوحشية.. مساجدها.. مدارسها.. قصورها وصبّاناتها.. ظللتُ أياماً لا أنام كلما تذكرتُ أولئك الفلسطينيين الجرحى وقد أخرجوا من منازلهم بعد حصارٍ دام أسابيعاً، يُساقون مشياً مسافة ثلاثة كيلومترات ليصلوا سيارات الإسعاف.. كقطيعٍ مريضٍ لا ضير إن نفق..

على طاولتها القديمة.. سفر التوراة مفتوح.. إلى جانبه صندوقه المخملي المطعم بالفضة وشمعدانٌ معتّق.. كانت تصلي ربما قبل دخولي.. وعلى الجدار صورة قديمة للقدس أو «أورشليم» كما تحب أن تسميها.. وأخرى مفجعةٌ للـ«هولوكوست» كيلا تنسى حقدها الأبدي على «هتلر» ونازييه.. وصورة ثالثة لابنها موسى الذي ظل مفقوداً أربعين ليلة، ثم عُثر عليه في زقاقٍ نائن مذبوحاً.. مبتور اليدين..

ارتعش بدني.. كنتُ أزورها لتذكرني بأمي فتمنحني سلاماً روحياً خالص المحبة.. لا أدري لم شعرتُ ذاك اليوم.. بمزيجٍ من الخوف والغربة..

هذه المرأة اليهودية، أعرفها منذ طفولتي..

عندما قررتْ أمي العودة إلى سورية أوائل السبعينيات، تعرفتْ في مشغل الخياطة الذي عملتْ فيه على أختها الكبرى يهوديت، فصارت الأخيرة وديفيرا صديقتيها المقربتين.. كانت لا تحب مخالطة المسيحيين.. وتخشى التعرف على مسلمين.. فاكتفتْ بمن عثرتْ عليهم من اليهود القلائل في

دمشق.. هكذا، إلى أن قررتْ يهوديت الهجرة إلى إسرائيل مشمولةً بالإذن الرئاسي الذي سمح سنوياً لأربعٍ وعشرين يهودية بمغادرة سوريا.. ذاك الإذن خص اليهوديات العوانس اللاتي اقتربن من سن اليأس، كي يعدن إلى إسرائيل فيتزوجن ويحافظن على النسل..

ألحتْ يهوديت على أختها وصديقتها لمرافقتها.. لكنهما رفضتا ترك دمشق.. وبعد أعوام، تزوجتْ الخالة ديفيرا يهودياً من هنا، وتزوجتْ أمي من عادل.. فتوترتْ علاقتهما بعض الشيء.. ورغم هذا ظلتْ أمي تزورها سراً كما أفعل الآن.. كانت تحضرني معها دون سارة.. خوفاً أن تشيها الشقيّة عند أبي.. فتتحدثان بالسياسة.. تتجادلان في بعض المرات، وتضحكان في أخرى.. وتحتفلان بالأعياد معاً.. وتصومان معاً وتصليان - كلٌّ على طريقتها - معاً..

ديفيرا خريجة كلية العلوم بدرجة امتياز، أتقنت اللغتين الإنكليزية والفرنسية، إلى جانب العربية والعبرية.. وقبل معرفتها بأمي أحبتْ يهودياً من حلب اسمه «موسى».. هرب إلى إسرائيل أواخر السبعينيات.. وظل يراسلها ويحثها على اللحاق به.. فمثلها مطمعٌ للدولة الناشئة.. حاول إغراءها بالمال مراتٍ عديدة مستخدماً مخبرين يهود في البلد.. لكنها لم تقبله.. وبعد فترة قصيرة.. قررتْ الزواج من غيره، لتقطع إصرار آماله..

ورغم غرابة سلوكها وتفكيرها.. أحبتْ أمي كثيراً.. ساعدتها على التأقلم مع وضع اليهود كقلّة، في بلدٍ متشعب الديانات والأطياف كسوريا.. وربما كانت هي السبب في بقائها هنا وعدم تفكيرها بالعودة إلى روما..

روما!!.. روما التي ما أحبتْ أمي ولا كرهتْ مدينةً مثلها!!

كان لها أماً هناك.. عملتْ عارضة تعرٍّ في مجلة للمراهقين.. تعرّفتْ على جدي السوري أثناء دراسته في روما، في أحد الملاهي الليلية.. افتتن بجمالها، وتزوجها فور علمه أنها يهودية مثله.. وفي ذات الملهى بعد عامين وبعد إنجابها أريللا، التقتْ بمصمم أزياءٍ فرنسي، أحبها وعرض عليها العمل لحسابه.. سافرتْ معه إلى باريس وتركتْ طفلتها لوالدها الذي كان مشغولاً بدراسته مهمِلاً لاهياً.. فأوكلها صديقه العراقي المقيم في روما مع زوجته.. ولحسن حظها أنه كان عقيماً رأى فيها أملاً للبنوّة..

عاشتْ أمي في كنف العائلة اليهودية العراقية، حتى بلغتْ السادسة عشر.. كان والدها قد هاجر مع زوجته الجديدة وولديه الصغيرين إلى إسرائيل.. ونسيها لدى صديقه أو تناساها.. أما أمها فقضتْ حتفها مع عشيقٍ جديدٍ في حادث سيارة أو هكذا قرأتْ آريللا عنها في المجلات..

وحدث ذات مساء، أن حاول الأب البديل التحرش بها.. فهربتْ أمي ليلتها من المنزل.. ولم تعد إليه بعد ذلك..

ما كانت لتهاجر- كفلول اليهود- إلى إسرائيل.. ولم تستطع البقاء في روما.. كان في حقيبتها جواز سفرٍ سوري وهويةٌ مكتوبٌ عليها «موسوي».. كانت تعلم أنها قد تواجه ما هو أسوأ في سوريا.. لكنها اتخذت قراراً حاسماً بالعودة..

آريللا.. بهالة الغموض والغرابة المرافقة لها أبداً.. كانت على شفير التورط بالعنوسة، عندما عثرها عادل.. امرأةٌ في الثلاثينيات، تشرق وعياً وطموحاً وجمالاً.. وفتىً عشريني العمر.. يمضي النهار في جمع المال.. والليل في صرفه..

كلما عرفتُ عنها أكثر.. وجدتُ لجدي- والد عادل- أعذاراً لرفضها.. هي حقاً في خانة اللامعقول!! محقونةٌ بماضٍ أسود، مؤمنةٌ بدينٍ شوّهه معتنقوه.. مريضةٌ بطموح العظمة.. حتى حبها المطلق لأبي ما كان ليشفع لها عند جدي.. فنصف فتيات دمشق أحببنه أيامها..

وأخيراً.. جهزت القهوة!!..

فاليوم سبت ولا يمكن لديفيرا إيقاد نارٍ غير هادئة.. أظنها استغرقتْ عشرين دقيقة لتغلي فنجاني قهوة!!..

- تفضلي حبيبتي .. تأخرتُ عليك ..
- عادي .. كيف حال العم نعيم؟ ..
- والله ليس بخير .. المكتبة ما عادت تجارة مربحة .. الناس لا يقرأون هذه الأيام .. بالكاد يبيع بعض الدفاتر والأقلام لطلاب المدارس .. أظن أنه نجح بإقناعي هذه المرة .. سنسافر يا غادة .. فهذه البلد لم تعد لنا ..
- إلى إسرائيل؟ !..
- ههههه .. أضحكتني والله .. أبعد هذا العمر تريدين مني بيع مبادئي؟ !..

ربتتْ على كتفي.. ورشفتْ بعض القهوة الفاترة.. ثم حاولتْ فتح حديث..

- صحيح !!.. أخبرني بعض الأصدقاء في تل أبيب .. أن موسى أصبح عضواً في الكنيست، وكان ممن صوتوا مؤخراً لاقتحام نابلس ..
- لا أريد الخوض في هذا الأمر ..
- أنا أيضاً مثلك .. لم أعد مهتمة من يغلب من .. ومن على حق،

ومن على باطل .. أظن أننا جميعاً مسيؤون .. فليغفر لنا الرب خطايانا ..

- ما يحدث في فلسطين ليس خطيئة يا خالة .. إنه جريمة !!.. جريمة تتجدد كل يوم .. وتزداد شراسةً وبشاعة ..

- أنت تدركين ذلك .. فلا تواربي بالمفردات كي تجمّلي قباحاتهم ..

زمّتْ فمها.. رشفتْ رشفة أخرى.. وقامتْ إلى غرفتها.. غابتْ دقيقتين وعادتْ.. كان في يدها ظرفٌ مغلق، متآكلٌ بعض الشيء..

- تفضلي حبيبتي ..

أعطتني الظرف.. ولبست نظارتها تتابع شريط الأخبار في تلفازها الأبيض والأسود..

- عندما كنتُ صغيرة، كنتُ أحسد بقية الأطفال .. المسلمين منهم والمسيحيين .. كانوا أبرياء من كل شيء .. لا أحد يشير إليهم عندما يسيرون في الطريق مع آبائهم .. لا أحد يحدثهم بالسياسة أو الدين .. وعندما كبرتُ قليلاً .. أُعطيتُ هوية عليها نعتٌ خاص .. « موسوي ».. لم أسأل أبي أو أمي عن التسمية الغريبة .. فكل اليهود هنا يحملون مثلها .. لكنني تساءلت لم لا يكتبون محمدي أو عيسوي لغيرنا من الأديان؟ !.. نعم .. للمسلمين هنا جوامع يرفع أذانها وللمسيحين كنائس تقرع أجراسها .. الكل يجاهر بعقيدته، يمارس عباداته، ويحتفل بأعياده، إلانا .. ننغلق وننصاع ونقتبس أسماءكم ونطبخ على طريقتكم ونلبس مثلكم ورغم هذا يُشار إلينا بـ « العدو ».. كل هذا لأن جماعةً من اليهود أرادتْ امتلاك وطنٍ تكون فيه « الأكثرية ».. لا يتجرأ أحدٌ على أرضه أن يسبّها أو يرجمها أو يحرقها .. ولا تضطر فيه أن تصمت !!.. « أورشليم » يا غادة في عقيدتنا بقداسة « مكة » في عقيدتكم .. ترى لو سلبها أحدٌ منكم .. أكنتم تصمتون .. وتقبلون التشرد في كل الأصقاع ناسينها؟ !..

ثقبتني نظرتها.. صمتتْ قليلاً.. شربتْ ما بقي في الفنجان.. ثم أكملتْ..

- أنا لست مناصرةً لحق العودة .. أنا كأي مسلمٍ ولد سورياً ولم يرغب بالهجرة إلى « مكة » أو « المدينة ».. أنا ابنة دمشق .. لي حقٌّ فيها أريده .. أريد الشعور بالانتماء لأي شيء .. لحجارة منزلي .. لشارع حارتي .. لذاكرةٍ أكون فيها ديفيرا كما يعرفني أهلي .. لا « نفيسة » كما على الهوية .. أريد أن أكون أنا لا « المنبوذة »!!.. أتعلمين كيف ماتت أمي يا غادة .. عانتْ من نزفٍ حادٍ في المعدة، فأسعفناها إلى مستشفى حكومي .. وانتظرنا متبرعاً بالدم .. انتظرنا طويلاً .. حتى جاء أحدهم .. دخل مع الممرضة إلى غرفة سحب الدم، وخرج سريعاً .. بصق في وجه أخي .. وقال له « فلتذق

بعض ما تطعمونه لإخوتنا في فلسطين ».. ثم ماذا حصل .. ماتت أمي .. وكل الذي تغير في القضية أننا خسرناها .. لم تتحرر فلسطين !!..

قامتْ إلى صورة ولدها.. قبّلتها.. وقالت لي..

– انظري إليه .. بقي هنا معي ومع والده .. لم يعد إلى إسرائيل كما فعل كل أصدقائه اليهود .. لم يشأ التنازل عن هويته السورية ليثبت دينه .. فما كانت مكافأته؟ !.. أن بُترتْ يداه ورُمي مذبوحاً في زقاق خلفي !!.. والفاجعة أنه ما أثار حزن أحد .. لم ينعوا اسمه حتى في صفحة الحوادث .. وقيّدوا جريمة قتله ضد مجهول ..

لطالما كانت ديفيرا عتيّة على البكاء.. لم تبكِ رغم كل الحزن الفارع فيها.. يهوديةٌ حقّة هذه المرأة.. ينتصر فيها الحقد على الألم.. والعند على البكاء..

– كدتُ أنسى لم أردتُ رؤيتكِ اليوم ..

غيّرتْ الحديث بلحظة..

– هذا الظرف بين يديك .. تركته أريللا معي قبل انتحارها بأسبوع واحد .. طلبتْ مني إعطاءه لك بعد موت عادل .. لكنني سأرحل ولم يمت أبوك بعد ..

ضحكتْ بسخريةٍ وقحة..

– بالمناسبة .. أنا وعمك نعيم مهاجران إلى أمريكا .. أخوه راحيل مقيمٌ في ضاحية بروكلين مع عائلته منذ عشرين عاماً .. فتح مطعماً شرقياً في الحي .. ويقول إن أموره حسنة .. سنسافر بعد أسبوعين .. على الأقل سنجد هناك من يتلو الصلاة على جثتنا إن متنا .. ويدعو لنا بالمغفرة ..

رأيتها لحظتها امرأةً غريبة.. تعطيني رسالةً من أمي.. وتدير ظهرها..

خرجتُ من عندها دون وليمة الغداء المزعومة.. دون قبلة وداع.. أو ضمةٍ أخيرة.. وبعد أقل من شهر.. هاجرتْ ديفيرا حقاً إلى نيويورك مع زوجها المريض.. لكنها بعد ثلاثة أعوام من موته عادت إلى «تل أبيب».

******

دمشق / يوليو - 2002

نحن لا نشبه أحلامنا بشيءٍ.. ولا هي تشبهنا.. نحن لا ننتمي للأمل المحبوس فينا، ولا محكومون به.. نحن ضمائرنا الميتة.. شعاراتنا الواهية.. أكاذيبنا الخدّاعة.. نحن سرابٌ يزول عند أول منعطف..

نحن ككل طيفٍ نام على حلم.. ولمّا يستيقظ بعد!!

سافر بي سالم ذاك الصباح إلى اللاذقية.. كنتُ مشغولةً بكتابٍ أقرأه لألهي نفسي عن التفكير في سارة، وفي تلك الرسالة التي نسيتها عمداً في غرفتي، كيلا يغلبني الفضول على فتحها..

ماضيَّ يؤلمني كما هو.. ولا حاجة بي لكشف المزيد..

لكن الغريب يومها أن سالم لم يُدر الراديو على محطته المفضلة.. لم يسألني إشعال سيجارة.. لم يتوقف عند استراحته المفضلة ليشتري لنا القهوة.. ولا ثرثر معي كما عودني كل طريق..

- سالم؟ !.. كيف هي تحضيرات العرس؟ ..

شعرتُ فجأةً بالسيارة تنحرف بنا.. كأنما قطعتُ عليه شروداً كاد يودي بحياتنا.. ضغط الفرامل.. ركن السيارة على جنب.. تأكد من سلامتي.. اعتذر مني.. ونزل..

لحقتُ به من الخوف عليه لا على نفسي.. فعثرته يعضُّ أصابعه، ويهذي كلاماً غير مفهوم.. بعد دقائق من التوهان.. علمتُ منه أن رجلاً أيسر حالاً تقدم لخطيبته.. فاختارته بديلاً.. وتزوجتْ ليلة أمس..

ما أمر الحياة تزيد الفقراء بؤساً.. وتسلبهم حقوق الأمل؟!..

مذ أحبها.. احتاط منها خيبةً، والتوى على نفسه يُمنّيها بالفرح.. كان خائفاً منها.. فطموحها أكبر من حجم توقعاته.. فعل لأجلها كل استطاعته.. عمل ساعاتٍ إضافية، وكافح ليحصل على قرضٍ سكني.. وانتظر.. كم انتظر بلا جدوى!!.. لمَ يكمل حياته الآن؟!.. لم يعمل؟!.. لم يستيقظ كل صباح إن هي لم تعد موجودة!!..

أوصلني إلى شقتي.. فرجوته أن نخرج للغداء معاً.. لكنه لم يشأ.. ودّعته بمودة.. فظلَّ بارداً.. ثم بعد ربع ساعة.. كلَّمني ليخبرني أنه مستقيل.. وتمنّى لي الحظ الطيب.. حاولتُ بعدها لأيام مكالمته.. لكنه لم يجب.. فحدث أن استبدله عادل بسائقٍ آخر.. هكذا بكل بساطة..

آهٍ منك يا سالم.. علّمتني كيف تُميت الخيانة قلب الرجل.. وكيف تبخره إلى السماء بلا جلبة!!..

******

على العشاء، اجتمعتُ ببعض زملاء الصف في مطعمٍ إيطالي قريب.. لم تكن الصحبة ممتعة..

سالي وداليا تحدثتا عن عرض «إيلي صعب» الأخير وموسم التخفيضات في شارع «الأميركان».. بينما أمضتْ جوليا الوقت على الهاتف، تتغازل مع حبيبها.. فيما التهم إياد ثلاثة صحون بيتزا بنهمه المعتاد.. وتجادل داني وأحمد حول مباراة المونديال النهائية بين ألمانيا والبرازيل.. فازت فيها البرازيل بهدفين لرونالدو..

بدأتُ أشعر أن هذه المدينة لا تناسبني.. وأن أيًّا من هؤلاء الصبية أو الفتيات، لن أصادق..

عدتُ إلى الشقة متململة.. الحرارة مرتفعة، والرطوبة خانقة.. وهذه المدينة تنام باكراً فتزيدني وحدة.. ربما وجب عليَّ في نهاية العام نقل أوراقي إلى جامعة دمشق.. ربما يمكن لأبي أن يجلب استثناءً من وزير التعليم العالي..

لن أستمر هنا.. لن أستطيع!!..

تغيّبتُ عن المحاضرات الصباحية إذ استيقظتُ متأخرة، عكرة المزاج.. فتصفحتُ الفيس بوك لبعض التسلية.. كان وقع صورهما الكثيرة، أشدُّ مرارةً من قهوتي!!..

في بريدي عشرات الرسائل منها.. أشواقٌ فائضةٌ.. أسئلةٌ معقدة.. يومياتها التفصيلية مذ سافرتْ معه إلى الهند حتى وصلا ليلة أول أمس ماليزيا.. أرسلتْ لي صوراً له مختلفة، التقطتها غفلةً عنه.. لشعره.. ليديه.. لأصابع قدميه.. لطريقته في الأكل.. في النوم.. في الضحك..

نعم.. هو هكذا الحب.. متى أحببتَ التفاصيل.. وقعتَ في الحب!!..

أبداً كانت تغرينا النقائض أنا وهي.. فلطالما أحبتْ كل جديد، وبقيتْ أناي عالقةً في سحيق الذكريات.. تلقتْ حياتها بضحكةٍ وعفوية، وحوّلتها أنا لتراجيديا دائمة الأسى.. تشاقتْ طفلتي في العلن، حين كنتُ أمارس معها دور الأم وأتذمر في صمت.. كونها كان مزهراً ملوناً، وكان عندي أبيضاً وأسوداً.. لا أدري كيف استطاع هذا الرجل القادم من خلف المحيطات جمع نقائضنا؟!.. لا أدري كيف يمكن أن تحبه سارة، وأحبه أنا أيضاً؟!..

سأحتاج دهراً كاملاً لفك لغزه.. ودهراً آخر لتحمّل فكرة أنه أحبها وما أحبني!!..

هذه واحدةٌ من اللحظات الكثيرة.. التي احتجتُ فيها أمي، لتفعل

معي ما كانت تفعله حين تسرق سارة اللعبة التي اخترتُها، وترغم عادل على شرائها!!..

نفضتُ عن قلبي غبار الغيرة، ورفعت السقف على آمالي.. عليها أن تظل حبيسةً داخلي..

أحبها وما أحبني.. هذا كل ما عليَّ تذكّره كلما خدعني أملٌ بلقائه.. وإن فاح عطر حبه في روحي كياسمين دمشق.. لا بأس عندي إذاً.. فسريعاً ما يذبل الياسمين.. ويهدأ الشغف!!..

«ثم إني أحب عاصم!!».. ذكّرتُ قلبي للمرة المئة بعد المئة..

كنتُ وعاصم، نتراسل كل يوم، لنحكي أيامنا.. فضحتُ له كل تفرعاتي.. وما عرفتُ سوى أنه عاصم.. ذو الثلاثة والثلاثين ربيعاً.. مقدسيٌّ من عرب الداخل، بهوية زرقاء إسرائيلية.. يدّرس مادة التاريخ في مدرسة فلسطينية هناك..

في الثلاثين من مارس.. قبل أربعة أعوام.. كتبتُ تهنئةً من ثلاثة أسطر في أحد المنتديات الأدبية محاولةً مني لمشاركة الفلسطينيين «يوم الأرض».. فتُرك تعليقٌ أسفل الصفحة.. «العيد لنا والأرض لهم..» كان الإمضاء باسم «عاصم الفتحاوي».. أرسل لي في اليوم نفسه رسالة خاصة.. «هذا إيميلي الخاص.. راسليني.. أنتظرك..».

كنتُ مُراهقةً ومرهقة.. سريعة الوقوع في الوهم.. أتعطش لذبذبات الغموض وأعشق المراسلات.. كنتُ أظن أن ألذ حديثٍ في العالم هو ذاك المرسل بين اثنين غريبين بعيدين.. خططا لموعدٍ في رسالة.. والتقيا في أخرى.. وتودّعا في أخيرة!!..

ألهمني بحديثه عن التاريخ.. اغتالني من نقطة ضعفي..

كان مُلفت الذكاء، حاضر البديهة.. علمانياً يؤمن أنَّ من الممكن جمع البحر في زجاجة!!.. للأشياء عنده مسميات جميلة، تلسع القلب بلذتها.. كان مثلي يتمنى لو ظل الكوكب مباحاً للحلم.. دون خدعة الهوية وذلَّ السفارات..

كتب لي في ثاني رسالة.. «ليتني أحتسي فنجان قهوتي معك في أرض الياسمين ونتمشى طويلاً بعدها إلى بيارات يافا.. أقطف لك بعض البرتقال.. فتقشرينه على رمال الإسكندرية.. تهمسين لي لكأني أشم رائحة العنب، فأحملك على غيمتي إلى كروم لاريوخا.. تنتقين زجاجةً نرتشفها تحت قمر فيرونا ولا ننام..».

عاصم.. ككل الفلسطينيين.. ضليع بالسياسة.. لكنه متفقٌ مع قادة

حزبه، بأن قبول الوجود الإسرائيلي في فلسطين، لا يتنافى وحق الفلسطينيين بالعودة.. حين كنتُ أتعجب من دفاعه بعض الأحيان عن عدوه.. كان يجيبني..

«لا تتحدثي كشيوخ حماس.. لا تخاطبيني بمفردات الوجود أو الحدود.. إنهم موجودون شئنا أم أبينا.. لن يرحلوا.. لن يتركوا بيوتهم ومزارعهم ومحلاتهم كما فعل الفلسطينيون من قبل.. الحمامة يا غادة لو هجرتْ عشها مخافةً من رعد، لا تعود إليه أبداً.. فهي تعلم أن لا قدرة لها على استعادة العش لو ذرته الرياح أو استوطنه غراب.. الحمامة يا غادة.. أكثر فطنةً من بعضنا!!..».

أراد سلاماً مع إسرائيل، ودولتين على أرض فلسطين.. أراد للدم الفلسطيني أن يُصان لو في نصف بلد، على أن يُهدر فيه جميعاً..

صباحاتٌ ومساءاتٌ لا أتذكر عددها، قضينها في الحديث الإلكتروني.. إلى أن فاجأني مرةً وطلب رقم هاتفي.. وقتها رقصتْ روحي من الفرحة!!.. قلت لنفسي.. سأسمع صوته أخيراً.. سأتأكد أنه موجود.. رجلٌ حقيقيٌ يتنفس!!..

سأراه في صوته.. نعم سأراه!!..

أرسلتُ الرقم دون تردد.. رنَّ هاتفي بعد دقيقة، فلم يظهر رقمٌ على الشاشة..

- ألو ..

نبستها مرتعدة..

- بدأتْ روحي تحبك يا غادة .. ولذا أردت سماع صوتك قبل التورط فيك أكثر ..

قالها.. فاحمرّ وجهي خجلاً، وانحبس حسِّي..

كان صوته أجمل من خيالاتي.. يتسرب من قلبه لا من حنجرته.. أحلى من أصوات المطربين المعالجة بأحدث التقنيات..

- أتعلمين .. أكاد أسمع أنفاسك .. لا حاجة أن تتكلمي .. فهذا أكثر ما أحب سماعه ..

- لا أصدق أنك أنت .. أرجوك .. لا تنهي المكالمة اليوم .. اسقني حديثك طوال المساء ..

ذاك المساء تزيّن به..

وتوالت المساءات كسحابات صيفٍ، تعدُني بأسطورة عشقٍ سرمدية، لتوقظني الصباحات على «لا شيء»!!..

في الحب.. نحن ندمن على من نحب.. لذا مهما طالت الأوقات بنا،

لا يفترسنا الملل، بل نتشوّق للمزيد.. لم أفهم لمَ كنتُ أشم إذاً روائح الفتور واللارغبة في حبي لعاصم؟!..لمَ لا أنزف قلقاً إذا أهملني في ازدحام يومه؟! ولمَ أتعاطه باعتيادية وأنشغل عنه بأي شيء.. لمَ لا أثور.. لا أغضب.. لا أغار.. لا أتذمر.. كيف يمكن أن يخلو الحب من كل متع المفاجآت؟!..

أظن أن بعض الناس يكتشفون الحب فيُؤخذون به.. والبعض يخترعونه فيصطادهم وهمه.. هو هكذا حبي لعاصم.. مرفقٌ ببراءة اختراع!!.. «سأظل أسيرة وهمي..» صفقتُ لضعفي يومها.. وعدتُ إلى صورهم.. تأملتها صورةً صورة.. ثم نهضتُ بخيباتي لأكمل ما بقي من محاضرات اليوم..

******

عندما وضعه المساعد في يدي.. انزلق مني وراح يقفز بين الطلاب وفوق مناضدهم وأدواتهم.. كان مشهداً هستيرياً مثيراً للضحك.. احتجزه بعد دقائق وأعاده لي.. كنت قد ارتديت قفازاتٍ إضافية، ورغم هذا ظللتُ أرتجف.. لم أدري ما الخطأ.. فقد تابعتُ محاضرة تشريحه بدقة، وحفظتُ مراحل التجربة.. لكن كل شيء تبخر من عقلي، عندما مسكتُ هذا المخلوق الأخضر اللزج!!..

على النضد أمامي.. لوحٌ خشبي، مسامير، وإبرة للتنخيع، وبعض المحاليل للتجريب.. بجانبي طاولة إياد.. كان قد انتهى من تخدير ضفدعه، وتثبيته وتشريحه.. فيما كنتُ أنا أحاول عبثاً التأقلم مع ملمسه.. نظر إلى ارتباكي.. فانفجر ضاحكاً.. أخذ ضفدعي، وراح يدخل الإبرة في ظهره، إلى أن ارتخى وتخدر.. ثم فرده على اللوح، ثبت أطرافه الأربعة، وشرّح بطنه، حتى برز قلبه الصغير..

اجتاحني البكاء وأنا مختبئةٌ خلف إياد، أسرق بين كل خطوة وخطوة نظرةً خاطفةً، وأبكي المخلوق الضعيف..

عندما انتهى من مساعدتي، ما كان عليَّ سوى تسريب بضع قطراتٍ من الأدرينالين على قلبه العاري، وملاحظة تسارع نبضاته.. نزعتُ قفازاتي.. وجلستُ على جنب.. حزينةً مرتعدة..

بعد لحظة.. ومض هاتفي.. مكالمةٌ من الخارج.. اختبأتُ تحت النضد كيلا تلحظني المشرفة وفتحتُ الخط..

- ألو .. غادة ..

صغيرتي سارة.. كم اشتقتها هذه المرة..

- لن تصدقي الخبر !!.. مصطفى يا غادة !!.. طلب يدي للزواج !!.. يريدني أن أسافر معه إلى كليفلاند ..

نهضتُ من روع الصدمة، فارتطم رأسي بحرف الطاولة.. نزفتُ ووقع الهاتف من يدي..

غريبةٌ هي الحياة!!..

على جسر هاربر، ساعة الغسق في «سدِني».. كان نصفي يختبر ارتفاع الأدرينالين من فرط الحب والسعادة مع شريكٍ يريد إكمال بقية العمر قربه، بينما نصفي الآخر هنا يحاول تحريض قلب ضفدعٍ مسكين عار الصدر، منزوع الإرادة..

التقطتُ الهاتف بسرعة، ما زال صوت سارة مسموعاً..

- غادة .. صوتك يتقطّع .. ماذا تفعلين .. أين أنتِ؟ !..
- أنا في المختبر .. أحاول تشريح ضفدع ..
- لا تشرّحيه .. بل قبّليه !!.. ربما يتحول أميراً يا غادة .. فاليوم يوم السحر !!..

لطالما صدّقت الخرافات.. وآمنتْ أن في الحياة سحراً أشد ذكاءً من الحياة نفسها.. وأن الأساطير ليست ضرباً من الخيال.. عاشتْ تنتظر أميرها، لم تبحث عنه.. ولهذا تمكّن من الوصول إليها..

لملمتُ بعثرتي، واستأذنتُ الخروج.. تركتُ ضفدعي هديةً جاهزةً لطالبٍ غيري يمنحه اهتماماً أكثر..

في المساء.. هاتفني عادل يزف لي خبر الخطبة المفاجئ.. أخبرني أن سارة اختارتْ افتتاح الفرع الجديد في كليفلاند وليس في أيٍّ من العواصم التي زارتها ومصطفى.. وبعد عادل، كلمتني سلمى تدعوني لحفل خطوبة بسيط في منزلها نهاية الأسبوع.. وبعد سلمى، جاءت مكالمة العم أحمد مفاجئةً كالمرات القليلة التي كلمني فيها.. كان متفائلاً.. مبتهجاً.. متمنياً لهما الحظ والسعادة..

وكأن الكل تآمر ضدي.. ليبدو رأيي ندّاً أعوراً يهذي الرفض في زوبعة القبول!!..

من أين عاد هذا الرجل، ليقلب موازييني ويناقض توقعاتي؟!.. ويألب الجميع ضد رغباتي؟!..

كيف اقتحم الحياة عنوةً كموجةٍ عاتية عصفتْ بهدوء شطآني.. وساقتْ جحافل التغيير إلى كوني؟!..

ثم كيف وافقوا جميعهم على قرار الزواج السريع دون رأيي؟!.. ألستُ أنا أختها.. وأمها.. وصديقتها؟!.. أليستْ هي نصف قلبي، نصف روحي، نصف عمري؟!.. ألم تسرق بطفولتها الزائدة طفولتي حين رعيتها وكنتُ مثلها

أحتاج من يرعاني؟!..

هكذا تضيع السنين بلحظة.. يأتي فيأخذها معه بلحظة؟!.. تُخطف من أيامي بلحظة؟!.. تُمحى من وجودي بلحظة؟!.. توضّب في حقيبة سفرها الدفء والفرح وبشائر المُنى.. وتتركني لشراسة النهاية بلحظة؟!..

أتنتهي من حياتي بعد كلِّ هذا العمر؟!..

أيخلو البيت من صخبها.. والحديقة من ضحكتها.. والغرفة من فوضاها.. بلحظة؟!..

لا يا رجل الكوارث!!.. سأمارس حقي في رفضك.. وهذا الزواج لن يتم!!.. فطفلتي ما زالت صغيرة، ونحن ما عدنا نعرفك.. ثم إن قراراً مصيرياً كهذا لا يتخذ بسرعة..

قررتُ ذاك اليوم، ألا أحترق في الظلام كعادتي..

******

في دمشق.. كل محاولاتي انتهتْ بالفشل!!..

لم تنفعني الوسوسة لعادل.. كان حازماً بموافقته، مقتنعاً بصهره المنتظر.. ينضح سعادةً لأجل سارة التي لم تنل حظاً في إكمال دراستها.. على رأيه..

«ثم إن شقيقةً مريضةً كسارة تحتاج لطبيبٍ هادئٍ كمصطفى..».

شجبني، مستنكراً رفضي..

وعاد لمتابعة مسلسله يتجاهل به إطالة النقاش.. هي ربما المرة السادسة أو السابعة.. كلما عُرض «رأفت الهجان» على محطة، صار جزءاً من مزاجه المرئي.. تابعته مراتٍ عديدةً أيضاً.. لكن إثارته ما كانت لتشغلني عن ورطتي الكبرى..

ذهبت إليهما.. إلى سلمى وزوجها.. لكن التجادل معهما كان أمنع بكثير.. فقد شرعا ينسّقان لأمسية الخميس الخاصة، بالورود والأضواء وصرر اللوز بالسكر وقوائم الهدايا والمشتريات الكثيرة..

شعرتُ.. أن عوسج الرفض الذي نبت داخلي، التف عليَّ بأشواكٍ حقنتني بسمِّها، والكل مبتهجون.. وأن احتراقي وحيدةً في الظلام ليس عادة احترفتها.. بل قدرٌ عَبِثٌ يتفنن بإشعالي..

في حي «المالكي».. أمام بيت سلمى.. جلستُ داخل سيارتي أكثر من ساعة.. أحاول صياغة رسالة نصيّة أرسلها لمصطفى.. قد تكون آخر الأمل بإفساد هذا الزواج..

كتبتُ له..

«مصطفى.. سارة تحب رجلاً آخر.. وعلاقتهما متأزمة.. وافقتْ على الزواج منك لتغيظه..».

غير مُصدَّقة.. مسحتها وكتبت..

«مصطفى.. أنت وسارة لا تشبهان بعضكما.. وهذا الزواج هو أسوأ قرارٍ تتخذانه..».

غير مناسبة.. مسحتها وكتبت..

«مصطفى.. تورَّط قلبي فيك أيضاً.. ولا أدري كيف يمكن أن أرى أختي تتزوج من حبيبي..».

كانت هي المطلوبة.. لكنني مسحتها أيضاً.. وكتبت.. ومسحت وكتبت.. حتى عدلت عن فكرة الرسالة..

قد بقي على ميعاد عودتهما ساعاتٌ قليلة.. وعلى مساء الخميس يومان.. وأنا عاجزة عن النوم، عن الصراخ، عن افتعال الفرح مجاراةً للجوقة السعيدة..

عندما رجعتُ إلى المنزل.. استقبلني عادل بابتسامة.. أدخلني إلى غرفة مكتبه.. وفتح خزنته ليعرض عليَّ هدية زواج سارة.. كان قد أعاد صياغة أحد أطقم الألماس الخاصة بأمي.. وأضاف إلى العقد ياقوتةً براقةً في الوسط..

- ها غادتي .. ما رأيك؟ ..
- أكثر من رائع .. بالغ الأنوثة .. ستحبه بكل تأكيد ..

أدمعتْ عيناي بلا إرادة..

- آه غادتي .. أعلم أن فراقها صعبٌ علينا .. لكن سعادتها هي الأهم يا ابنتي ..
- أجل .. هي الأهم ..

في قاعة الوصول.. شهدتهما يبزغان من تدافع الناس العائدين إلى دمشق.. وقد نزعا عنهما رداء الخجل الذي اكتسياه حين الذهاب.. كل أشواق أبي.. وضحكات عمتي.. مباركات زوجها.. وعبير ورودي.. لم تشغله عن النظر إليها برغبة.. هي التي جعلها الحب أكثر نضارة..

خرجنا كعائلةٍ سعيدةٍ واحدة، إلى مطعم عادل المفضل في قاسيون.. كان الظلام قد فرد غطاءه على دمشق.. وحوّل بيوتها إلى لآلئ.. وكأن المدينة بكل أحيائها صارتْ إلى سماء ثانية.. تتألق بالبيوت نجومها.. والسيارات نيازكها.. والجوامع والكنائس كواكبها..

جلسا قبالتي.. رأيته يتعمّد أن تصطدم كفه أو كتفه بها، مع كل

حركة لتقريب صحن أو تبعيده.. فتغمزه بدلعٍ وتبتسم.. شعرتُ.. وهما يتناغمان.. أن هذا المفترق أخير.. وأن عينيّ الملطختين بالغيرة تعكسان تعاستي!!.. لكأننا لا ندرك كم نحن تعساء إلا حين نرى سعادةً نشتهيها تكلّل أقرب الناس إلينا.. وشعرتُ.. أن عودة مصطفى.. هي المجهول الذي سيخلِّد حزني إلى الأبد!!..

انتهينا من تناول عشائنا ولم تنتهِ أحاديث سارة عن المدن التي زارتها.. تحدثتْ بنهمٍّ عن كل ما رأت وسمعت وتذوقت.. استأذننا مصطفى ليجري مكالمة طارئة في الخارج.. فكانت فرصتي لأحادثه على انفراد.. استأذنتُ بدوري بحجة دخول الحمام.. وهربتُ من الباب الخلفي للمطعم.. لاحقة به إلى الشارع..

كان يتحدث بالإنكليزية.. فهمتُ من حديثه، عن رغبته بالانسحاب من وفد اليونيسف لتلقيح الأطفال ضد الشلل في جنوب إفريقيا.. وتأجيل دوره إلى حملة الشهر القادم.. رآني وأنا قريبة منه.. فلم يستغرب.. وضع كفه على كتفي وقرّبني أكثر.. ثم أنهى المكالمة..

- غادة .. أخبريني؟ !..

- أنا .. أنا فقط كنتُ أريد أن .. أن أستوضح منك قرار الزواج المفاجئ ..

- معك حق.. هو مفاجئٌ فعلاً.. كنتُ قد قررتُ منذ سنين، اعتكافي عن الزواج.. لكن سارة غيرت رأيي..

- سارة ما زالت طفلة.. تتحمس لكل جديد فقط لأنه جديد..

- لا أظن ذلك.. قد عرفتُ في حياتي نساء كثيرات.. سارة أشد وعياً وذكاءً من معظمهن..

- ما دمت محنّكاً في النساء هكذا لمَ لمْ تتزوج من قبل؟!..

- تزوجت..

- تزوجت؟!..

- نعم.. يبدو أن سلمى قد أخفت ذلك عنك أيضاً.. كما أخفته عن سارة..

- وماذا حلَّ بزواجك؟!..

- كنتُ قد تزوجتُ قبل أربعة أعوام من ممرضة أرمنيةٍ متطوعة معي في اليونيسف.. حدث أن أصيبتْ بالإيدز أثناء مشاركتها في عملية ولادة لأمٍ مصابة في مدغشقر.. وحين تأكدتْ من ذلك بعد عودتنا إلى أمريكا.. طلبتْ الانفصال عني.. وعادتْ إلى مدغشقر لتكمل عملها التطوعي

هنالك كمهنة دائمة..

- ثم..
- ثم ماذا؟..
- ثم قررتَ عدم الزواج؟..
- نعم.. كنتُ قد جربتُ حظي في الحب.. وخسرته.. فصارتْ النساء سكاكري لتحلية الحياة..
- لم أفهم..
- النساء يا غادة.. كقطع الحلوى.. أول ما يجذبك إليها شكلها.. ثم رائحتها.. فلئن قررتِ تذوقها.. قد يصيبك الإحباط من فساد النكهة.. وقد تكون فقط عادية من دون نكهة.. وقد تغرمين بطعمها وتولعين بها.. لكنك مهما أحببتِ «الكلير» أو «الماكرون» أو «التشيز كيك».. ستصابين بالملل بعد فترة وتفضّلي البدء بتذوق أنواع جديدة.. اعذريني لفظاظة تشبيهي.. لكن معظم الرجال يفكرون هكذا..
- وتظن أنك بهذه النظرية السطحية ستملك قلب سارة؟!..
- سارة.. سارة ليست السكر الذي أتوق لنكهته.... سارة هي قوس قزح الذي سطع على بهاتة عالمي.. هي رائحة الصنوبر التي طهرت عفونتي.. هي نغم العود الذي يبكيني حزناً ويحتد ليغمرني بالفرح!!.. أتعلمين يا غادة.. ما كنتُ لأصدق كيف يمكن أن يعثر المرء في حياته على مخلوقٍ بكل هذا الكمال.. وكم أنا محظوظ إذ عثرت!!.. سأتزوجها لتسكنني.. لتعشش بي، وتتفرع داخلي.. ثم تورق وتزهر وتثمر في حياتي ذكرياتٍ ومُنى..
- سارة مريضة يا مصطفى.. وتعلم أن مرضها هذا سيؤثر على تفاصيل حياتها معك.. وأن طيش أفكارك قد يدمرها..
- هي أرق من جرأتي على خذلانها أو إحزانها أو نسيانها.. صدقيني.. لن أعرف ولاءً في حياتي كولائي لها..

كان شديد الثقة من مشاعره.. ممتناً للصدفة التي لقنته درس الولاء مجدداً وأقنعته بصلاحية الحب لديه.. وكأن كل نساء حياته احتجبن خلف زجاج متجر حلويات رخيص، وما عُدن يغرينه.. أو أنه امتنع عن تناول السكر كسارة واكتفى بقطعته الوحيدة.. المنفردة واللذيذة..

- ندخل؟!..
- تفضل أنت.. أحتاج بعض الهواء النقي..
- كما تحبين.. سأخبرهم أنك في الخارج..

- شكراً..

في قاسيون.. تتعثر بالحب كيفما مشيت..

الحب.. نبيذ الأغنياء.. وقمح الفقراء.. يبذخ به الغني ساعة الترف.. ويقتاته الفقير ليعينه على الحلم.. فترى الغني إذا أحب لاهيٌّ نسّاي.. ومعظم الفقراء في الحب شعراء!!..

الحب.. نبيذي وقمحي.. بذخي وقوْتي.. نسياني وقصيدتي.. ما لم يكن له.. فغير مهمٍّ بعد اليوم ألا يكون..

******

اللاذقية / مارس - 2003

كالبارحة.. على المقعد الثالث.. السابعة والنصف صباحاً..

باب الحافلة المفتوح أمامي دللني ببرودةٍ احتجتها على عتبات يومٍ ربيعيٍ حار..

من الغريب أن تعيش في مدينة صغيرة لدرجة أن تعرف كل الناس من حولك.. أن تعرف أسماءهم، أصواتهم، بل حتى ملابسهم وكلامهم.. وكأنهم في دائرة الضوء بقعٌ شاحبة لا فضول يثيرك كي تنظر إليها..

قبل أعوام كانت الحياة مغرية لدرجة الحيرة.. لكن نهمي في فهمها، أفقدها كل لذة!!.. ومن المؤسف أن فقدي للمتعة جاء في أمسِّ حاجتي إليها.. انحبس الهواء إذ تحركت الحافلة، وبدأ صوت فيروز بالاختفاء أمام ضجيج الشارع..

رنين هاتف محمول.. هاتفي.. هو موعد مكالمة عاصم الصباحية.. ليلة أمس كلّمني عشرين مرة، ولم أشتهِ حديثه.. فتحتُ الهاتف وأرخيته – كالصباحات الأخيرة – على كتفي.. كان صوته مسموعاً وحديثه غير مسموع.. أتراه لم يدرك بعد توقفي عن حبه، أم أن روعة الحب الذي جعلته فيه، حال دون رغبته في الإدراك؟!.. أتراه يصدق حقاً ضغوطي الدراسية، وأنا التي كنت قبل أعوام أفرج بحديثه ضغوطاتي؟!..

بينما كان يثرثر، كنتُ أكتب اسمه على دفتري ثم أشطبه.. امتلأت الصفحة خربشات ولم ينهِ بعد مهرجانه المضجر!!..

«غادة قولي أي شيء.. اشتقتُ لصوتك، لحديثك، لبعض الحب منك.. فكّي لجام صمتك يا غادة.. لا تبتري الحلم يا أملي!!».

ضحكتُ باستهزاء.. وأحسبه سمعني.. أو أن شرقيته الفجَّة غلبتْ أشواقه فأغلق الهاتف في وجهي..

عن أي حبٍّ تبحث يا عاصم، وبأي أملٍ تتشبث؟!.. ارتاب فكري.. هو هكذا حبُّ الشتات.. ننسحب منه بلا مقدمات.. نفارق أحلامنا الثكلى على مدارج الطرقات.. مشردان قلبي وأنت على رصيف الذاكرة.. متنافسان في تشويه الفلول الباقية من الحكاية..

أتعلم يا عاصم..

من اللحظة التي تصادمنا فيها على موقع الدردشة.. كان عليَّ إدراك أن لا جدوى من لملمة الأشلاء التي تناثرتْ بيننا.. وأن رياحَ العبث ستذرونا بعد حين كيفما اتفقْ.. لأي قصةٍ عابرةٍ جئتَ تسألني حنيناً؟!.. وقد

كنتُ وسيلةً لترويض طيشكَ الأحمقْ؟!.. كنتَ تريدني سحراً وها قد انقلب عليك.. وتشتهيني قطعة سكر، تلك التي تذوب في لحظة، ولا يبقى من أثرها إلا حلاوةٌ واهية..

عندما غيرتَ صورة حسابكَ في الفيس بوك إلى صورة طفلةٍ حديثة الولادة.. سألتك ببراءة، من تكون؟!.. فقلتَ لي.. هذه غادة.. ابنتي الثانية.. الثانية يا عاصم!!.. وأنا لا عِلم لي بالأولى، ولا بأمهما!!.. قلتُ في نفسي.. استيقظي يا غادة!!.. ما نفع أن يسمي ابنته على اسمك؟!.. غداً يعود إلى حضن بيته، وتعودين أنت لعراء الوحدة..

وأدركتُ في لحظة، لمَ لمْ تشأ لقائي.. ليس أنك مقدسيٌّ بجواز سفر إسرائيلي.. ليس أن حكومة بلدي لا تسمح بوصولك إليّ.. بل لأنني هروبك من طلبات الزوجة وفوضى الأبناء.. أو ربما كنتُ فرصة مغرية تثبت فيها لنفسك مرة أخرى، قدرتك على جذب امرأة..

أنا لستُ امرأة يا عاصم!!.. أنا طفلةٌ تتشبه بامرأة!!..

رن الهاتف من جديد.. فتحته بعصبية..

«نعم!!».. أجبتُ بحدة..

«الله ينعم عليكِ..» ضحك عادل..

عكّرني حديث عاصم، فلم أنظر اسم المتصل.. هاتفني أبي يخبرني أنه في طريقه إلى اللاذقية، وقد أحضر معه ضيفاً لنجتمع على الغداء.. وأنه اشتاق لتناول السمك الطازج في حضرتي والبحر.. رفض إخباري اسم ضيفه السري.. ربما يكون العم جهاد فهو يعلم كم أحنُّ لرؤيته..

الهاتف مجدداً!!.. يالِ هذا النهار!!.. كان رقماً أمريكياً.. غريباً لا أعرفه..

- ألو.. غادة!!..

هو مصطفى..

- لم أشأ محادثة والدكِ أو أمي كيلا يرتاعا.. لكن سارة تعبتْ بالأمس فأحضرتها معي إلى المستشفى.. قال طبيبها أن نتوقع ولادة مبكرة.. ولا أعلم ما أفعل.. أنا خائف يا غادة.. أشعر أنها ليست بخير..

رجف قلبي.. وتوقفتْ الحافلة فجأة.. كل الركاب بدأوا بالنزول، فمحطة الجامعة هي الأخيرة.. إلاي تصلّبتُ مكاني وكأن خيوطاً من السماء تدلّتْ عليَّ.. قيَّدتني.. وعجزتُ عن الحركة..

- غادة.. هل تسمعينني؟!

قد وقع اختيار مصطفى على الشخص الخطأ، لينعي إليه خبراً كهذا.. هو يعلم من هي سارة بالنسبة لي.. هي أقرب لأن تكون ابنتي، غاليتي،

نصفي البعيد.. لو كنتُ الآن في طائرة، لاحتجتُ ست عشرة ساعة كي أصلها!!.. ويقول لي بكل سذاجة.. هي ليست بخير..

- غادة.. هل تسمعينني؟!
- أسمعك وما الفائدة!!

انفجرتُ باكيةً كبركان مستعر.. كانت الحافلة قد مضت بي من جديد إلى محطة البداية.. وخيوط العجز تعصرني بلا رحمة.. وصوت مصطفى ينخر في رأسي فيدمي فؤادي.. وينسكب على قيودي كصمغٍ ليزيدها متانة..

محاولاته البائسة في استنطاقي، ذكّرتني بمحاولاتٍ أبي فتح باب الغرفة على أمي المنتحرة في الداخل..

- قلتُ لك أختي مريضة، لا تتزوجها.. قلتَ لي أحبها يا غادة!!.. قلتُ لك ما دمتَ مصراً على منحها الفرح لا تبعدها.. قلتَ لي مضطرٌ يا غادة!!.. قلتُ لك إذاً لا تسمح لها بإنجاب هذا الجنين.. سيسلبها حياتها.. قلتَ لي هي تريده يا غادة!!.. ثم تكلمني الآن وبيننا آلاف الأميال لتقول.. أشعر أنها ليست بخير ولا أعلم ما أفعل.. افعل أي شيء.. أي شيء يبقيها على قيد الحياة.. لأنها لو ماتت.. ستقتلك غادة!!..».

- غادة!!.. أرجوك..

أغلقتُ الهاتف في وجهه.. فأضاءت صورتها على شاشته الصغيرة.. ترتدي ثوباً أبيضاً وتحمل ثوباً صغيراً يشبهه كانت قد اشترته لابنتها المنتظرة.. فوخزني ضميري.. وشعرتُ أن الأكثر مأساةً.. بينما كنتُ ومصطفى نتراشق بالكلام.. أن أختي- على سريرٍ غريبٍ في بلدٍ غريبٍ- تحتضر!!..

«كيف سأخبر عادل؟!.. ماذا سأقول له؟!.. إنه في الطريق إليّ.. وهل سأصبر ساعاتٍ لأخبره؟!».. قلتُ في نفسي.. ثم قررتُ مكالمة العم جهاد.. هما معاً في غالب الأمر.. وعشرته الطويلة مع أبي ستسعفه لنقل الخبر..

«لا يا ابنتي، لستُ معه.. لم أره منذ أيام، لم يأتِ إلى المحل ولا إلى المعمل أيضاً..» قال لي بصوتٍ مضطرب..

غريب!!.. ما لم يكن جهاد.. من هو ضيفك لي يا عادل؟!..

وصلتُ إلى المحطة القريبة من الشقة.. قررتُ العودة.. كان لدي امتحان، نسيتُه البتة!!.. فتحتُ الباب ودخلتُ، فطالعتني صورة أخرى لسارة، معلقة على حائط غرفة المعيشة.. غمرني حزنٌ ثقيل.. هل سأخسرها إلى الأبد ولن يبقَ من حيويتها إلا صمتُ صورة!!.. نزعتها.. قربتها إليّ، ثم سألتها..

«أتعلمين كم أحبك يا شقية؟!.. أتعلمين لو تركتني كم ليلاً سأبكي؟!..

كان عليَّ ربطك بالسرير لأمنعك عن مصطفى كما كنتُ أفعل لمنعك عن الحلوى.. يا ليتني خسرتُ نظري ذاك اليوم ولم أسمح برحيلك.. البارحة حين تهاتفنا.. قلت لي سأسميها غادة فأجبتك سمّيها أريللا لأحبها أكثر.. ضحكتِ وسألتني ستحبينها أكثر مني؟.. قلتُ لك.. إلا إذا كانت شقية كأمها.. قلتِ لي وصوتك يشتعل.. أحبيها يا غادة فهي أغلى ما لدي.. آهٍ منكِ صغيرتي.. ربما لن أستطيع!!..».

الهاتف من جديد.. هذا الهاتف اللعين لا يصمت!!..

- غادة حبيبتي.. أين أنتِ لآتي إليك.. في الجامعة؟..

- لا.. عدتُ إلى المنزل.. فلا تتأخر أرجوك..

قد علم أنني لست بخير، ولا بأس بذلك.. فبغضون دقائق سيضمني لصدره، وتنتهي المسألة.. لكن ابنته الثانية أيضاً ليست بخير ولا أدري كيف يبلغها..

كان معه مفتاح الشقة.. فتح الباب ودخل على عجل.. كنتُ - أنا - هامدةً على الأرض كجثة.. كُتبي مرميةٌ قربي، وصورتها في حضني مبللةٌ بالدموع.. أمسك الصورة ومسحها.. ثم قبّلها.. ثم أسند خدّه الأيمن على حضني.. وما هي إلا لحظات حتى بدأ إحساس الرطوبة يتجاوز نسيج ثوبي لينعش جلدي.. بكى عادل قبل نطقي بكلمة..

استدقَّ الصمت داخلي حتى صار وخزه موجعاً.. مسحتُ على شعره، همستُ له..

- سارة ليست بخير.. أسعفها مصطفى صباح اليوم إلى المستشفى..

- أنا السبب..

ضرب بقبضته الأرض فأدماها..

- هي في غرفة العمليات.. ستلد اليوم قبل موعدها بشهرين.. ومؤشراتها الحيوية ضعيفة..

أجهش في بكائه مهشّماً قلبي..

ما تجدي الدموع يا عادل!!.. قلت في نفسي.. لو بكينا عليها أبحراً ما نفعناها أنملة..

- ستتركنا يا غادة، كما فعلت أمها.. يا إلهي!!.. كم عليَّ أن أحزن بعد لأنتهي!!..

انتصف النهار.. وأنا على جلستي أتحرَّق بجمر انتظاري.. وينهشني الخوف عليها مع كل نبضة.. وكلما نظرتُ إلى أبي الذي لم يتوقف عن التدخين دقيقة، وإلى الهاتف الذي صام عن الرنين، رقَّ قلبي وصار عرضةً

لنبال الشكوك بخسارتها أكثر.. كنتُ أكثر من يائسة.. تتقاذفني ظنونٌ مفجعةٌ بين عشرات السيناريوهات..

فرغتُ بعد حين من كل طاقةٍ على احتمال هذه البائقة.. خرجتُ إلى الشرفة أبحث عن بعض صوتٍ يذكّرني باستمرار الحياة.. فلمحتُ سيارة أبي.. كان في داخلها امرأةٌ غريبة، ترتدي على رأسها منديلاً أبيضاً.. تذكرتُ لحظتها موضوع الضيف الطارئ.. ربما كانت هي..

- عادل!!.. لم تركتَ ضيفتك في السيارة؟!.. ادعها للصعود..

- ليس الآن..

أجاب باقتضاب..

- ليس لطفاً أن تبقى كل هذه المدة بانتظارنا في الأسفل.. فلتصعد هنا معنا.. نحن لن نخرج للغداء على أية حال..

- غادة.. دعيها الآن!!..

نَهَرني.. ثم.. رنَّ الهاتف المقتول.. إنه العم جهاد..

«كيف أنتِ يا ابنتي.. أعلم أن المفاجأة مُرّة، وأنك ما كنتِ لتريدي له أن يتزوج من جديد.. لكنه لم يصغِ إلي.. وبيني وبينك قد هرم ومرض.. وها قد تزوجتْ سارة، وأنت مشغولةٌ في جامعتك.. ربما من الأفضل له أن يجد امرأةً صالحةً يكمل ما بقي من العمر معها.. وخديجة قريبةٌ قديمة جاءتْ إلى محلنا صدفةً قبل بضعة أشهر، ومن حديثٍ لحديث، أخبرتْه أنها ترملتْ قبل عامين وليس عندها أطفال.. ربما أراد أن يجبرها ويعوض نفسه بها.. لا تقسي عليه يا غادة.. إنه أبوك على كل حال.. أليس كذلك يا ابنتي!!..».

انتفض أبي من كرسيه، شدَّ الهاتف من يدي وصرخ في جهاد..

«ألا يمكن أن تصبر يا رجل!!.. أتظن أن مشاعرها تهمك أكثر مني؟!..».

لم أصغِ لجدالهما.. بل نزلتُ الأدراج باكيةً غير واعية.. وقفت مصدومةً أمام سيارتنا.. وفي وجه تلك المرأة الغريبة حدّقت طويلاً.. كيف فعلتها يا عادل؟!.. كيف تزوجتَ بلا علمي؟!.. ألم تتب عن زواجاتك السرية البائسة؟!.. ألم تتعلم من خطئك القديم؟!.. أم تحسب المواجهة بعد الإثم شجاعة؟!.. فعلتها بأبيك متذرعاً بانغلاق عقله عن استيعابك.. فلم تفعلها معي اليوم؟!.. ما ذنبي لتجعلني كأي غريب يبارك زواجك بعد حصوله؟!..

وصل إليّ بعد دقيقة..

- غادة!!.. اسمعيني يا ابنتي..

أحكم إمساكي بكلتا يديه، كطيرٍ يخشى فراره..

- أرجوك خذ زوجتك من هنا، وعد إلى دمشق.. اتركني أنتظر موت أختي بهدوء..

صفعني على وجهي بقسوة.. فتصدعتْ روحي ومعها كبريائي..

- كلما كبرتِ.. كلما قلَّ أدبكِ!!..

صرخ بي وقد اجتمع بعض الناس من حولنا في الزقاق..

حين أتذكر مشهدنا يومها، يخيّل لي أنّا خرجنا من مسلسلٍ دراميٍّ ضعيف الحبكة.. أنا وأبي نمثل دورين لا يشبهاننا، والخالة خديجة ملتزمة بأوامر الإخراج ولم تتحرك من مقعدها، وبعض الكومبارس هنا وهناك يتلصّصون علينا بغباء..

قلتُ له يومها عكس ما جال في خاطري، كنتُ أريد بقاءه.. فسألته الرحيل.. وقابلني هو ببردة فعل يرفضها.. صفعني.. ثم ركب السيارة واختفى!!..

******

كل محاولات اتصالي بمصطفى، أخفقت.. ربما هو أيضاً قرر اعتزالي، بعد فجوري الأخير..

على صخور الشاطئ أناسٌ آخرون.. بعضهم يصطاد السمك والبعض يتصيّد الحب.. وأنا كما الموج.. أنتحر مع كل لحظة.. ثم أعود إلى عمق أوجاعي أختار أعنفها لأنتحر بها من جديد..

مرَّ هذا العام ثقيلاً.. حتى أحداثه المُقلّة جاءتْ تعيسة.. الأزمة القلبية التي تعرَّض لها عادل.. رسوبي في أربعةِ موادٍ الفصل الفائت.. أكاذيب عاصم.. وحَمْل سارة.. وأنا كمظلةٍ متهيئة.. أدرأ عنهم هطول الهم وأتشرّبه ليثقلني فلا أجف منه..

عدتُ إلى الشقة بعد مسيرٍ طويل.. تمنيتُ أن أجد عادل بانتظاري.. كان قد مرَّ في غيابي، ترك على الطاولة تذكرةً إلى كليفلاند بتاريخ الغد، العاشرة صباحاً، وقصاصة ورق كتب عليها.. «لا تتأخري».

الساعة تجاوزت الثالثة فجراً وموعد الطائرة بعد تسع ساعات.. لم أكن متأخرة.. لكنني شعرتُ بذلك.. حزمتُ أمتعتي بعجالة، دسستُ التذكرة في جيبي، وركبتُ أول سيارة أجرة عثرتها..

«مطار الباسل لو سمحت».

نمتُ ذاك المساء، على كرسيٍّ صغير في قاعة الانتظار.. واستيقظتُ على صوت عادل، حضر ليسافر معي.. شربنا القهوة ببرود.. حاولتُ الاعتذار.. لم يكن مهتماً.. فأمضينا ساعتين في سكون، بيده جريدةٌ يقرأها، وبيدي هاتفٌ

أستجديه رنيناً.. ومع مرور الوقت.. مثّلتُ التحدث باعتيادية..

- أخبارٌ جديدة؟!..

- نعم.. فعلها «بوش» ظهر أمس، ووجه أول ضربة عسكرية استهدفتْ بغداد..

- تعني أن الحرب قد بدأت..

هزّ رأسه بحزن.. وأردف يخبرني..

- المهلة التي أعطاها لصدام حسين ونجليه انتهت بالفعل، فلم يغادروا العراق.. وضربة الأمس هي «ضربة الفرصة» كما سماها الرئيس الأمريكي.. ومن عساه يصغي للفرص الأخيرة؟!..

دنتْ مني امرأة شابة تحمل على كتفها طفلاً صغيراً.. طلبتْ الإذن لتجري مكالمة من هاتفي.. أعطيتها الهاتف، فابتسمتْ ثم سألتني حمل ابنها لتبحث عن ورقة عليها رقم زوجها.. ثرثرتْ أنه غيّر رقمه ولم تحفظ الجديد بعد، وأن رحلتها إلى السعودية قد تأجلتْ ليوم غد.. ثم فجأةً.. أفرغتْ حقيبتها على طاولتنا وراحتْ تنثر الأشياء في كل اتجاه.. نظر إليها عادل باستعجاب.. كانتْ تبحث بيد، وتمسك هاتفي بالأخرى.. عندما لمع اسم مصطفى على شاشته وعلا صوت الرنين.. خطفتُه من يدها.. توتر عادل.. تبادلنا نظرتين من خوف وأمل..

- أعطِني.. سأجيب أنا..

أمسك يدي.. ضغطَ عليها.. فجمعت المرأة أغراضها.. أخذت طفلها من حضني.. ومضت.. كان صوت أبي خافتاً، وحديثه مقتضباً.. انتهت المكالمة.. وما زال الهاتف في يده.. ثم بعد دقائق سحب التذكرة من جيبه.. مزّقها ونثرها في الهواء..

- لم يبقَ لنا في كليفلاند ما نسافر من أجله!!..

اللاذقية / ديسمبر - 2003

شهورٌ مضتْ.. والكون واقفٌ على ذات النقطة!!..

تتوالى الصباحات والمساءات عليَّ بلا فروق.. بعيداً عن دمشق.. عن قبرهما.. وعن حزن عادل..

كنتُ أمارس موتاً من النوع الصامت.. سنح لي معاشرة الحياة بلا إرادة.. كل مشاعري تحنّطت.. كل الأصوات كُتمت.. كل الآمال مُزقت.. وأدركتُ أنِّي في قعر فاجعتي صرتُ مجرد ذاكرة..

بعد دفنها بأسابيع قليلة.. زرتُ وأبي طبيباً نفسياً.. كان الحزن فينا قد بلغ مرحلة المرض.. قال لنا بعد طول استماع «مسألة وقت وتعود الحياة إلى مجاريها..».. هزَّ عادل رأسه باستهزاء.. فعلاجه المقترح، مُثبَت الفشل بسابق تجربة..

لا يا حضرة الطبيب.. لا يحلُّ الوقت عقداً.. بل يزيدها تعقيداً!!..

نتضوّر حزناً.. نحن المتخمون بالذكريات.. المأخوذون بالتفاصيل.. العالقون في أمسٍ لن يعود..

عندما كنتُ طفلةً في الثامنة، انطلتْ عليَّ حيلة الحلم، وظننتُ أن أمي قد ترجع من الموت صباحاً لتوقظني على رائحة فطورها.. أو لتضفر لي جديلة وتودّعني إلى المدرسة.. لكن مأساتي في فقد سارة.. أن براءتي الطفولية انقرضت.. وغلب وعي الصدمة فيَّ كل أمل.. فصدّقتُ موتها دونما شكوك..

كنتُ قد تعوّدتُ التنفس دون أمي من أجلها.. ومن دونها.. لا جدوى من التمسك بالحياة.. دفنتُ أحلامي جانبها تحت التراب وما انتظرتُ عودتها.. رؤية وجهها الشاحب لحظة الدفن، موّتتْ داخلي كل أسباب البقاء.. فساومتُ على فتات ماضيّ معها آتياً كاملاً ما عاد يعنيني..

في اللاذقية.. بعد عصر ذاك اليوم.. نهضتُ من السرير ناسيةً متى غفوتُ البارحة.. سكنني بعض الجوع.. والثلاجة خاوية.. لم أرغب النزول إلى الشارع ولا مخالطة الناس، ثم إن شتاء هذه المدينة فجٌّ لا يطاق.. طلبتُ البيتزا من محلٍ قريب وانتظرتها..

رائحة المنزل أشبه بكهفٍ عفن.. جلستُ على طرف الأريكة.. تأملته بعينين فارغتين.. فوضاه الغادقة زادتني كآبة.. على شاشة التلفاز الصامت مشهدٌ عرقل شرودي.. حاكى صراخاً قادماً من الشقة المجاورة.. صورة رجلٌ متسخٌ أشعث كأنما اكتشفوه في جحرٍ منسي.. أردتُ قراءة الخبر العاجل

لكن جرس الباب سبق فضولي..

في الرواق أمام شقتي حركةٌ غريبة على خلاف العادة.. باب الشقة المجاورة مفتوحٌ عن بكاءٍ وأنين.. وأنا ورجل البيتزا كنا نسترق السمع بسكون.. لحظاتٌ وخرج رجال الإسعاف يحملون عجوزاً مسناً على نقالتهم.. ثم تبعتهم امرأة قصيرة القامة ترتدي معطفاً واسعاً وخفاً من الصوف.. بكاؤها كأنه ملحٌ نثر على جرحي الحديث.. وخلفها طفل مختبئ مرتعد الأوصال، يشهق من طول بكاءٍ وشدة خوف، ويمسك بيده الصغيرة طرف معطف المرأة المتأثرة، التي عندما لمحتْ وجهي، دنتْ مني، وانهالتْ عليَّ رجاءً.. حدثتني بلهجة عراقية.. رجتني أن أجالس ابنها «عبد الرحمن» لبضع ساعات، كي ترافق والدها.. ثم هسترتْ تسبُّ الحرب والسياسة.. كل ما فهمته من لعثمتها أن خبر اعتقال صدام حسين أودى بقلب الأب العجوز إلى أزمةٍ ربما لن يفيق بعدها..

نظرتُ إلى الطفل الذي ما زال متشبثاً برداء أمه، ليس هذا أنيس الوحدة الذي انتظرته، لكنني ما استطعتُ رفض طلبها..

انحنتْ أمه إليه، وربتتْ على رأسه الصغير.. طمّنته أنها ستعود، ولن تتأخر عليه.. كان يبكي يريد الذهاب معها.. فحملته عنوةً وأعطته لي.. ثم ركضتْ خلف المسعفين..

مرَّ بعض الوقت عليه حتى هدأ.. أغريته ببعض البيتزا الباردة، فمسح دموعه وابتسم.. سألني عن اسمي.. ثم طلب مني إنارة الغرفة، وإطفاء التلفاز.. عندما قدمت له قطعة صغيرة، تمنّع عنها.. أراد أن يغسل يديه قبل الأكل، فذهبتُ معه إلى الحمام.. نظر إلى المغسلة العالية، ثم نظر إليّ.. رفعته وفتحتُ له صنبور الماء الدافئ.. غسل يديه وجففتهما له، فقبلني من خدي ولفّ ذراعه حول عنقي بتودد..

تناولنا الغداء المتأخر معاً، طفلٌ في الثالثة من عمره وأنا.. كان يسألني بين القضمة والأخرى أكثر من عشرة أسئلة، لا أملك الإجابة لمعظمها.. وعندما أنهى طعامه كرّر عليَّ غسل يديه، وواصل أسئلته العجيبة..

مبهجٌ هذا الصغير وروحي تائقةٌ لأية بهجة.. طلب مني ورقة وقلماً ليرسم.. ثم أخبرني أنه لا يجيد الرسم ويريد تعلّمه مني.. كلما رسمتُ له شكلاً طلب مني غيره..

«ارسمي بيتاً.. عصفوراً.. تفاحة.. زرافة.. سمكة......».

ضحكٌ ولعبٌ ورسمٌ وأسئلة.. زحف علينا النعاس وهو في حضني

يستمع لقصة «ليلى والذئب» أو بعض ما تذكرته منها.. نمنا على الأريكة متدثرين بالفرح.. ضممته كجزءٍ محببٍ لا أريد مفارقته..

في الصباح استيقظتُ عليه يرسم خربشاتٍ على يدي.. ويشير إلى الخطوط المتشابكة، أن هذا بيت، وهذا عصفور، وهذه تفاحة، وهذه زرافة، وهذه سمكة، وهذا.., وهذه..، فوقعتُ على الأرض من نوبة الضحك.. كان يكرر على يدي ما تعلمه مني بالأمس.. ذاك الشقي الرائع البسمة!!..

وبينما كنا نشاغب كطفلين هاربين.. سمعتُ جرس الباب، فتذكرتُ أمه التي ما رجعت من البارحة..

لم يعد للموت رهبةٌ في روحي.. أتلقى خبره كوعكةٍ لا تمسُّ اللب ولا تُنهك الجسد.. كانت الجارة الغريبة في شقتي، تقدّم للموت قرابين حزنها، تهدر النوح والوجع على والدها، ووجدْتني معها بالكاد أتأثر.. قد فقدتْ قبل ساعاتٍ أباها، وقبل أشهر زوجها وأخاها، وقبل أعواماً أمها، ولم يبقَ لها إلا ابنها يتيم الأب، يتيم الوطن..

شريط حياتها المبقّع بالسواد، أتعس من أن يُصدق!!.. ومثلها عراقيون كُثر.. وطئوا البلاد المجاورة، نازحين بجرحهم وبقايا أسرهم.. بعد غزو العراق الأخير..

أشقياء هم ضحايا الحروب.. يتبضّعون الشفقة بثمن كرامتهم.. يهربون من موت إلى موت.. ويدخلون التعداد الرقمي للإعلام كأية ظاهرة مستجدة أو موجةٍ عابرة.. تُنهش خصوصياتهم لتُحوّل إلى مواد ساخنة وعناوين براقة.. وننسى جميعاً أنهم كانوا كرماء فصاروا طفيليات زاحفة تتعايش مع المتاح..

فاطمة.. ابنة الأعظمية.. حدّثتني كم كان الخلاص متوقعاً.. حين رأتْ صدام حسين يهلّ عليهم ببزته العسكرية المطرزة أوسمةً، كرجل حربٍ يستبشر نصراً.. خالتْ وأبوها العجوز الذي كان قد خرج لتوه من صلاة الظهر في مسجد «أبو حنيفة».. أن الرئيس جاء مع ابنه يزف لهم تفاؤله بصمود بغداد.. لكن الهزيمة الفاضحة على وجهه، كانت أقرب للعراقيين من مسائهم.. فبعد ساعاتٍ قليلة اقتحمتهم دبابات الأمريكان.. وأسقطتْ تمثال رمزهم الذي كان قبل العصر هنا يحقن التفاؤل ويوزّع الآمال..

«عبرنا الحدود بأعجوبة، فأبي كان مصراً على البقاء في العراق، بينما أبناء عمومتي أدركوا أنا لن نعود إلى بغداد.. أقمنا في مدينة البوكمال على الحدود قرابة شهرين، لاجئين في مزرعة صديقٍ سوريٍّ قديم.. كنا نصلي كل يوم لاسترداد أرضنا وكرامتنا ونحلم بيوم الرجوع.. لكن مقتل عدي وقصي نجلي صدام، أخمد أرواحنا.. فقررنا التوغل في سوريا أكثر ومحاولة العثور

على سكن رخيص ومدينة مناسبة للمعيشة.. قصد أقاربنا دمشق، لكنا اخترنا اللاذقية..».

بكتْ حتى تعبتْ.. وقالتْ ما جال في ذاكرتها.. ثم أخبرتني أنها ستسلّم الشقة لصاحبها.. وتسافر مع يتيمها إلى دمشق.. لتستجير بمن بقي من العائلة هناك..

خلا عالمي من جديد.. فاستعدتُ صمته وموتي البطيء.. لكن صدى ضحكات عبد الرحمن ظلت معي، تتقافز أمامي من زوايا الغرفة.. وأقلام التلوين المرمية هنا وهناك، أبكتني وجعاً!!..

سمعت صوتهما يغادران.. قرعا باب شقتي باحثين عن وداع.. غير أنني لم أفتح الباب ذاك اليوم.. خفت من عينيهما.. ففي العيون الراحلة أحزانٌ مهيبة.. ومفارق طرقٍ لا تجمعها نهاية.. كان الصغير يدق الباب بأصابعه النحيلة وينادي «افتحي يا غادة».. كنتُ قد اشتقته قبل أن يرحل.. لكن قلبي المنفطر عاف مؤازرة الأشواق..

ملاّ مني بعد حين.. راقبتهما من خلف الستارة يصعدان سيارة أجرة مع حقيبتين صغيرتين.. ويغادران إلى غياهب المجهول.. فتحت الباب بحثاً عن رائحته في شقوق الخشب أو رخام العتبة.. فعثرت على ورقة خربشاتٍ متروكة.. حضنتها.. قبلتها.. بحثتُ لها عن برواز.. وعلّقتها في غرفتي..

******

ومهما كنتَ ميتاً.. لن يغلب الموت فيكَ حنينكَ لمن تحب..

تخال أنك أعتى من صهيل شوقٍ يعدو فيك حدود الخدر.. فيوقظك من غيبوبةٍ أقحمتَ نفسك بها هرباً من عنف الحقيقة.. تتجاهله كما لو أنك لا تراه.. تسير وحيداً مساحات شاسعة من الفراغ.. فإذا وقفتَ بعد تعب، انتشلك عائداً بك إلى الذين تحبهم..

كنتُ قد أدركتُ حقيقة موتِ نصفي بعد لحظةٍ من سماع الخبر.. تساءلتُ لحظتها.. كيف سأعيش بنصف عمر.. كيف سأحسُّ بنصف قلب.. كيف سأحبُّ بنصف عاطفة.. كيف أخرج للعالم مشوهةً، بنصفٍ مبتور؟!.. ونفوراً من الحياة اخترتُ اعتزالها على مغالبة فقدي.. لكن النصف النابض في صدري.. عاتبني في شأن عادل!!..

ليس أنَّ تلك الغريبة فقدتْ أباها ليلة أمس.. لكن اشتياقي إليه عاتبني..

كيف وأنا بقيّته الباقية.. فارقته هاربةً لاهية؟!.. وكذبتُ عليه بشأن عودتي للجامعة.. لأعثر حجةً فأغادره!!.. كيف لم أخبره أن فقد الكون بمن

فيه.. لا يوازي عندي يوماً في قربه!!.. وبدل أن أهرب إليه.. هربتُ منه!!..

ثم كيف لا أكون ميتة.. وهو ليس في يومي؟!..

ارتديتُ ملابسي.. وضّبتُ أصغر حقيبة.. ركبتُ أول حافلة توصلني «دمشق».. وكما لو كنا على اتفاق.. أمام الباب فتح لي ذراعاً واحدةً.. فارتميتُ على صدره..

- تأخرتِ يا ابنتي..
- لكنني عدت..
- لم تفارقيني لتعودي..
- احضنّي بكلتا يديك.. فالعمر باردٌ من دونك..

ضمّني إليه أكثر بذات الذراع.. وهمس بحسرة..

- ذراعي الثانية كانت لسارة.. لن تحضن أحداً بعدها..

دخلنا المنزل الجديد، في «مشروع دُمّر».. كنتُ قد وافقته الرأي حين أبلغني رغبته بتغيير السكن.. فالعيشة في ذاك البيت صارت مستحيلة.. للجدران رائحة ماضٍ ليستْ تُحتمل، ولزواياه ذاكرةٌ تثير نزوة الانتحار.. لكن تغيير السكن الدائم، يشبه سلخ الجلد عن البدن.. تصبح فجأة عارياً خائفاً مضطرباً.. تخسر مع الأثاث تراثاً كنتَ سيده.. ومع السقف غطاءً كان يحميك.. ومع الجدران روح المكان.. فتتلقّن التغيير تلو التغيير.. إلى أن تكتسي جلداً جديداً ربما لن يليق بك..

بيت جميلٌ فسيحٌ حديث.. لكنَّ روحه ميتة.. كموتها فيّ.. وفي عادل!!..

على مائدة العشاء.. أصنافٌ كثيرة.. أشكالها وروائحها غريبة.. بدا لي أن الخالة خديجة تحتفل بعودتي..

- تفضلي يا ابنتي.. أعددتُ «اليلانجي» خصيصاً لك.. أخبرني عادل كم تحبينه..

ابتسمتُ لها.. وتذوقته.. لم أستسغ طعمه..

- هل أعجبك المنزل؟؟..

سألني..

- جميل.. غير أنه لا يشبهنا..
- أجل.. هكذا أفضل.. لعلنا ننسى بعض الذي كان..
- أحقاً تريد أن تنسى؟!..

كنتُ جالسةً إلى يمينه.. طبطب على كفي.. وقال لي..

- أنت أيضاً.. عليك أن تريدي ذلك..

أمضينا سهرة مقتضبة.. ودخل كلٌّ غرفته لينام..

موحشةٌ هي غرفتي الجديدة.. كبيرة كالفراغ.. وليس فيها أي كتاب يجادلني.. أو صورة تؤنسني.. أو رائحةٍ تشبهني.. حاولتُ النوم دون نتيجة.. منعني عنه شعور الغربة.. وفراغ المعدة.. فخرجتُ أبحث عن مطبخ البيت.. لعل بعض المعجنات أو الفاكهة تنفعني.. كان أبي قد وصل قبلي.. وحضّر لنفسه وجبة سريعة، جلس في الظلام يأكلها..

- شاركيني إن شئتِ.. شطيرة البيض هذه على طريقة أمك.. أكثرت فيها الجبن والخردل، كما كانت تفعل.. فخالتك خديجة امرأة فاضلة، لكن طبخها سيئ.. تمضي أغلب نهارها في المطبخ، بلا نتيجة..

- لِمَ لم تحضر طباخنا القديم؟!..

- لا.. لا أريد إحراجها، لا ضير من شطيرة مسائية كل يوم..

- أتحبها؟!..

قام فقسم لي نصف شطيرته، وصب لي كوب عصير طازج.. مبتسماً كما لو سمع نكتة..

- الحب يا غادة عدوّ نفسه.. غرٌّ عنيد الرأس.. مُصدِّق المحال.. لا يؤمن بأنصاف الحلول، ولا يجيد التأقلم.. لا يتحول.. ولا يتغير.. ولا يتكرر.. لا يبيع نفسه لحياةٍ تفرض سلطانها.. لأنه فوق القانون.. يحكم ولا يُحاكم.. يُجبِر ولا يُجبَر.. يتحدى حصار القدر ولو اضطر أن يقتات على نفسه.. يضحكني كيف يسمي الناس انصياعهم للحب إخلاصاً.. هو احتلال الذين نحبهم لنا وطاعتنا لهم.. فنحن نصاب بالحب يا ابنتي ولا نشفى منه أبداً.. عندما لمحتُ أمك أول نظرة.. أصبتُ بعدواه.. انظري حالي!!.. ما زالت أعراضه فيَّ لا تفارقني..

- ولم تزوجت من أخرى إذاً بعد كل هذا العمر؟!..

- لا أدري.. خفت من الوحدة ربما.. أو خفت أن تتكاتف أعراض الحب والكبر عليَّ فتقتلني..

نظرتُ إلى نصف الشطيرة بلا شهوة.. نعم هكذا كانت تعدها أمي.. لكن هذه باردة، ولا رائحة أعشاب تفوح منها..

- كانت تحبك كثيراً.. وتحبنا.. ما زلتُ لا أصدق أنها انتحرت؟!..

جال هذا التساؤل في ذهني سنيناً.. ما تجرأتُ طرحه على أحد.. ولا بحثتُ له عن جواب..

- أحبتني نعم.. حين قلت لها تزوجيني.. احمرّ وجهها بحياء صبيةٍ ترتدي ثوب الحب أول مرة رغم سنينها الثلاثة والثلاثين.. أصيبتْ بي حين رأتني.. اعترفتْ لي بذلك.. كنتُ أول من يعرض الزواج عليها.. أول من

يقبِّلها.. أول من يحتويها.. كنتُ مرضها ولهذا وافقت..

وضع يده على صدره.. يفعل هكذا كلما تحدث عنها.. وكأنها حبيسةٌ في الداخل.. تضرب جدران قلبه بهستيريةٍ لتستعيد حضورها.. فيهدّئها بكفه ويطمئنها أنها حاضرةٌ رغم الغياب..

ثم أكمل يخبرني..

- في حبي لها تجهزتُ لكلِّ خسارة مقابل كسبها.. أحسستها جائزتي التعويضية عن فقدي لأمي وقسوة أبي وخدائع النساء اللاتي سَبَرْنَ حياتي.. حتى حين علمتُ أنها يهودية ظلتْ فاتنتي ومُنيتي من العمر.. وازددتُ تشبثاً بها معميّاً عن هول الفوارق التي لوثتنا يوماً بعد يوم.. تزوجتها بعد لقائنا الأول بثلاثة أشهر.. وقضينا في شقتها الصغيرة أياماً من العسل.. كان لها عليّ شرطان.. أن تمارس طقوسها الدينية دون تحفظٍ مني.. وأن أجاهر بزواجنا وأباهي بها على الملأ.. شرطان سهّلهما العشق عليَّ، فقبلت..

لمحتُ في صمته لوثة ندم.. وكأنه يريد أن يكمل بـ«وليتني لم أفعل..».. لكنه اكتفى بلحظات صمت محيّرة.. ثم سحب كرسياً.. وجلس جواري..

- كنتُ أراها في كل نقاشاتنا العقيمة تكبرني بآلاف الأعوام.. تفوقني عنداً، ذكاءً، فصاحةً وثقافة.. تعدو كجوادٍ وحشي الطبع تاركةً أميال المسافات بيننا.. لم أستطع ترويضها يا غادة والحقيقة أنني لم أشتهي ذلك.. أحببتُ فيها أكثر ما أحببت تلك العاصية العنيدة.. الفاتنة اللذيذة.. النارية المستبدة.. ما تمنّيتُ حبسها في قفصي مرةً ولا قصقصة جناحيها الثائرين.. يقولون إن أشد السم يُخلط بأشهى الأطعمة.. أجل.. كانت أمك مجبولةً بالحب الذي قتلني!!..

- لكنها هي التي ماتت..

- وهكذا اختارت قتلي.. ما تنفع الحياة ما دام الذين نحبهم ليسوا فيها؟!..

- ما زلتُ هنا.. معك..

- هي أنت فقط من ترغمني على التعايش مع موتي.. فلم يبقَ لي إلا ترابهما وعيناك..

ضمّني إليه وبكينا..

تُراها لو كانت تعلم كمَّ الحزن الذي صرنا فيه بعدها.. أكانت لترحل أيضاً؟!.. أم أن الذين يرحلون بإرادتهم.. أنانيون حتى العمى؟!..

قد كانت حبيبته وصديقته.. وليس غريباً أن يبكيها كل يوم.. لكنها

كانت أمي.. نَفَسي وبسمتي.. والأبناء الذين يكبرون بدون أم.. يعانون من الإعاقة الروحية المزمنة.. إعاقةٌ تؤلمهم وتلفت نظر الآخرين إلى نقصهم..

أتذكر كيف كنت وسارة نتنقل بين مدارس دمشق.. نبدّل في العام الدراسي الواحد ثلاثة مدارس على الأقل.. كنتُ أنا.. لا أتحمل فكرة كذب سارة على زملائنا حين يسألونها عن أمي.. كانت تكذب فتقول إنها مسيحية.. وأحياناً أن والدي تعرّف عليها في الخارج وأحبها فتزوجها.. حتى عندما انتحرت.. كانت تكذب فتقول إنها أصيبت بالسرطان وماتت.. بالطبع كانوا يكتشفون الحقيقة.. ونضطر لتغيير المدرسة..

لم تكن طفلتي معلقةً بأريللا مثلي.. سألتني دائماً.. لم لا تُسْلم أمنا وننتهي من كل هذا.. «كل هذا..» كانت تعني به حالة الصدام الدائم التي عشناها معهما.. هي وأبي.. خلافهما العقائدي القاتل.. والمضحك أنها كانت يهودية معاصرة.. وعادل غير ضليعٍ في دينه ولا ممارسٌ له.. لكنه أمامها يرتدُّ شيخاً ملتزماً بسبحةٍ ولحية.. هي أيضاً كانت تجادله كما لو أنها تحفظ الأسفار عن ظهر قلب.. فيرفعان أسلحة الدين على بعضهما ليدافع كلٌّ عن ضبابٍ خلفه يجهل ما يخفيه.. ثم بعد الجدال.. يشتكيان.. عادل يشتكيها لسلمى.. وهي تشكوه لأحمد.. وكطفلين يتصالحان سريعاً.. وسريعاً يتشاجران..

عدتُ إلى غرفتي.. وبصعوبة عثرتُ على الصندوق القديم الذي جمعتُ فيه بعض صورنا التذكارية وأشياء أمي المفضلة.. نظارتها الشمسية.. قلمها.. زجاجة عطرها الأخيرة.. وبعض التفاصيل الأخرى.. كان بين ماضيها الرسالة الغامضة التي استلمتها من الخالة ديفيرا ولم أقرأها.. لكنني حين لمحتها.. وجدتُها مفتوحة!!..

ترى من عثر عليها وقرأها؟!.. سارة.. أم عادل؟!.. أم ربما فضول أحد عمال النقل أو الخدم؟!..

توترتُ ووبّخت نفسي.. ما كان عليَّ تركها هنا، وأنا في مدينة أخرى.. سحبتُ الورقة المطوية من الظرف المفتوح، وفردتها في حضني.. نعم.. إنها منها.. هذه حروفها، وطريقتها في الكتابة..

كتبتْ لي..

«غادة.. يا بعض روحي..

أتمنى أن تقرأي رسالتي هذه بعد أن يكون والدك قد صار معي.. رغم يقيني أنك أعمق من فضح أسراري..

لقد قررتُ الرحيل يا غادة.. واتفقتُ مع أصدقاء التقيتهم قبل أشهر

في شرم الشيخ، لتهريبي من هنالك إلى الداخل.. إلى إسرائيل.. إلى حيث كان عليّ الرحيل قبل أعوام..

كنتُ أظن أن دمشق أمي.. وأنها اختارتْ لي عادل ليوثّق شرعيتي لها.. لكنها وعادل خذلاني يا ابنتي..

أنا لا أنتمي إليه.. ولا إليها.. ما عدتُ أشعر بالحب يا غادة.. كل ذاك السحر انطفأ.. وكل العشق انتهى.. أشعر بشعور الفراشة التي انحبستْ في زجاجة.. فظلّتْ تدور وتدور حتى تلفت أجنحتها..

دوائرهم ضاقت عليَّ يا ابنتي.. وخنقتني..

اليوم علمتُ من الطبيب أن أختك مريضة.. فلم أعدل عن قرار الرحيل.. ولم تنجح خطة القدر باحتجازي في زجاجة جديدة.. كل الذي تغيَّر.. هو وجهتي.. فما نفع البدء من جديد.. والنهاية في كل الأحوال تنتظرني..

نعم.. قد يكون الموت بانتظاري في طريق العودة إلى وطني.. ولا فرق لو وصلته أسرع..

الحب.. هو كل ما استطعت منحك وسارة إياه.. فلا تحرميها منه بعد موتي..

أحبك..».

******

بيروت / نوفمبر - 2004

في ركن بعيدٍ منعزل.. قررتُ انتظاره..

الساعة تقارب العاشرة..

الهدوء جميل..

وليس ثمّة أي صوت إلا موسيقى ديبوسي «ضوء القمر» تدغدغ سمعي برومانسيتها الحالمة..

على الطاولة أمامي.. حوض ماء نقيٍّ سبحت فيه أوركيدةٌ بيضاء مرقطة ببقعٍ ليلكية.. اقتربتُ منها.. رائحة الفانيليا فيها ذكّرتني بمخبوزات أمي أماسي العيد.. لامستُ نداها بأطراف أصابعي.. آسرة أنت يا عطر الملوك.. تحبين الحياة أينما كانت.. تكبرين لو على ضفة نهر، أو في غابةٍ عذراء.. تتنفسين في أعالي الألب وتصمدين في الصحراء.. تبتسمين وقد سرقك أحدهم من الصين وكاثرك في هولندا ليتاجر بك في أسواق بيروت.. تتألقين جمالاً وعبقاً وأنت حبيسة حوض ماء صغير..

أحضر لي نادل الفندق قهوتي البيضاء.. لا طعم لها إلا هنا في مقاهي لبنان.. رشفتُ رشفة.. فتعطرتْ أنفاسي بعبير ماء الزهر فيها..

حتى لو تأخر مصطفى.. لانتظاره ها هنا لذة!!..

مستمتعة كنتُ بكل ما أرى.. ما أشم.. ما أتذوق.. مصرّةٌ أن لبلاد الشام ثقافتها الساحرة.. عواصمها.. شوارعها.. أناسها ولياليها.. كل ما يجذبك في دمشق، تلمح أشباهه هنا.. في عمّان أيضاً.. ويقولون.. في القدس!!.. فلهذي العواصم روح.. ولجدرانها شجن.. لشوارعها حكايات تتكئ على الأخيلة العابرة.. ولبيوتها بساطة.. لفاكهتها رائحة.. ولقهوتها لذعة.. أجل.. إن لهذي العواصم روح.. وليس أجمل من مدينة تتنفس!!..

أن تتناسى جرحك الأزلي.. يصبح أكثر من ممكن، وأقرب من مشتهى، في مناخٍ تشعره قد ابتدع لأجلك.. فمثالية التناسي تتعلمها في الأمكنة الآخاذة.. حيث يكون نبض الحياة كافياً لينعش أدق خلاياك..

«يا ست الدنيا يا بيروت».. لو تعلمين كم قرأت عنكِ.. وكم عشقتك.. يا «تفاحة البحر» و«نرجسة الرخام».. لو تعلمين كم أحسدك.. فأنت محظية الشعراء، وأجمل النساء، وخاتمة السحر يا رقيقة.. كلما جئت إليك، ينتابني شعور العودة.. كأنما كنتُ تائهة في دمشق، وحيدةً بلا صديقة.. رائعةٌ أنت، بصدقك وزيفك.. بوضوحك وغموضك.. بكل الأضواء النافذة من جبالك، الغافية في شواطئك..

رأيته يدخل من الباب الزجاجي الدوار.. على معطفه قطيراتٌ من مطرٍ خفيف.. جلب تلك الليلة باقة ورودٍ صغيرة، لا أعرف اسمها.. حملها باستحياءٍ شديد.. ودنا..

تلألأتْ عيناي إذ رأتاه يقترب.. لاحظني فابتسم بحزن..

كنتُ قد غفرت له ذنبه فور رؤيته!!..

آهٍ منك يا رجلي!!.. رغم أن الروح معي.. والجسد معي.. لكن شيئاً مني كان مفقوداً واكتمل إذ رأيتك!!..

اقترب حتى استعدتُ ذاكرة عطره.. وضع الباقة الصغيرة على الطاولة بخجل.. مدَّ يده ليصافحني.. فعطشت لأكثر من مصافحة.. ضمني إليه.. فوجدتني أبكي على كتفه حزني كله دمعة واحدة.. طبطب عليَّ باليد الأخرى.. وقال لي:

«شكراً لأنك حضرتِ ولم تخذلي أملي!!..».

في الحقيقة – الحقيقة التي لن يفهمها يوماً – كان هو أملي!!.. وكنتُ أنساق عمياء وراء ظلِّه أينما مضى!!..

حين تلقيتُ رسالته على بريدي الإلكتروني قبل أيام.. توسّلني فيها الحضور إلى بيروت.. توقعتُ أن أمراً طارئاً قد حدث، منعه من الحضور مع عمتي وابنته الصغيرة إلى دمشق.. فبعد موت سارة، سافرتْ سلمى إلى كليفلاند لترعى الطفلة اليتيمة.. وعلمتُ من عادل أنهما عادتا الأسبوع الفائت دون مصطفى.. فتحيّرتُ إذ راسلني ما شأن موعده السريِّ في لبنان.. ولهذا أتيت..

جلسنا متقاربين على أريكة واحدة، وضع كفه على خدي فاحتوى بقبضته كل وجهي..

– تغيرتِ منذ لقائنا الأخير في دمشق.. أظنك خسرت بعض الوزن.. وأيضاً.. شعرك؟!.. هل قصصته كله؟!..

– خسرتُ ما هو أثمن من بضع كيلوغرامات زائدة أو خصال شعر مبعثرة..

ضغط بكفه الأخرى على يدي القريبة منه..

– أنا مثلك يا غادة.. خسرتها أيضاً.. وخسارتي هي الأعظم.. فقد خسرتُ معها فرصة امتلاك حياة.. كنتُ قد هيّأتُ نفسي حين التقيتها أول مرة لابتداع ذاكرةٍ نابضة معها.. لكنها رحلتْ مع أول ربيع.. وتركتني مهووساً بها.. مفجوعاً بخيبة الفقد السريع..

نظر إلى البيانو المنزوي في جانب البهو الساكن.. وقال لي..

- أتسمحين أن أعزف لك هذا المساء؟!..

بكيتُ أن نعم..

عزف لي «قطرات المطر» لشوبان.. فأتى بالحزن كله إلى روحي.. كان يعزف هذا اللحن مع أمي.. يجاورها فيبتسمان ويعزفان.. بينما كنتُ وسارة نراقب عن كثب تشابك أصابعه الصغيرة من بين أصابعها الرفيعة، رشيقة الحركة، أنيقة النقلة..

قمتُ إليه.. كانت دموعه تتكاثر مع اقترابي.. حتى انهار على آلته الحزينة.. وأجهش يبكي.. بعد دقائق من العناق الحزين.. عرضتُ عليه الخروج إلى الشارع.. كنا بحاجة للسعة بردٍ وبعض الرذاذ لنغسل حزننا.. سرنا ببطءٍ دون اتجاه.. تقودنا خطانا المتلكئة إلى بعيدٍ لا أذكره.. لكنني أذكر أنني ورغم هائل الأسى، كنتُ فرحةً بتلامس الأصابع الخجول بيننا..

- كانت قد اشترت لي قبل أزمتها بيومين، قميصاً خبأته في خزانتها.. عثرتُ عليه وأنا أفتش عن آثار رائحتها بين ملابسها.. تركتْ في جيبه خاتم زفافنا، وقصاصة عليها كلمتان.. أعطه لـ«أملا».. فسميتُ الطفلة «أملا» كما أرادتْ.. رغم أنها لا تذكّرني بها.. فهي لا تشبهها.. ابتسامتها مختلفة.. وعيناها غامقتان.. وصوتها بلا نغم..

- كيف هي الآن..

- بخير.. أرسلتها مع جدتها إلى دمشق.. وسرقتُ نفسي إليكِ.. أنت فقط.. من تذكّرني بها..

أوقفني على ناصية الطريق.. وتشبّث بأكتافي..

- أنا بحاجتك يا غادة.. ومثلي أملا.. نحن طفلان ضائعان نبحث عن حضنٍ دافئ يحتوينا.. وكما كانت تصفك سارة.. ليس كحضنك بيت..

رجف قلبي..

- أعلم أن لا سبيل إليك في عرفنا إلا الزواج.. وأعلم أنني قد أكون آخر الرجال في نظرك.. ومع هذا.. اعذري وقاحتي.. تزوجيني يا غادة.. ولك كل وعودي ألا أمسَّ شعرةً منك.. وألا أدخل غرفتك.. تزوجيني فقط لتظلي قربي.. من أجل ابنتي.. ابنة سارة.. أرجوك.. سافري معي إليها.. واقبلي أن تصيري جزءاً من حياتنا المملة.. وأعدك لو عثرتِ على رجلك يوماً.. فلك حرية الفراق.. لك وعدي يا غادة..

ظللتُ في صدمتي مغلفةً بالصمت، حتى بلغنا الفندق عائدين.. ظلان متعبان.. وقلبان من ألم.. أوصلني إلى غرفتي في الطابق الثالث.. وعلى بابها ناولني ورقة شاحبة.. قبّلني من جبيني دون كلمة.. ثم ضاع مني في

الظلام..

شعرتُ أنها رسالةٌ من سارة قبل أن أفتحها.. كنتُ بانتظارها.. كنتُ طوال عمري بانتظارها..

كتبتْ لي بخطها المعوّج..

«غادتي..

ربما سأموت اليوم يا أختي.. ولكِ في قلبي أشياء لم تعرفيها..

أنتِ نصف العمر يا غادة.. نصف قلبي.. نصف روحي.. نصف أحلامي وألواني..

أرجوك ألا تحزني كثيراً كعادتك.. ففي الحياة ما هو أهم مني يا غادة.. أنتِ يا أختي.. وأرجوك ألا تلومي نفسك على موتي.. ولا تلومي أحد.. واعلمي أنه قد كانت لي أمانٍ جميلة.. تحققت كلها..

أن أزور الهند.. أن أشرب فنجان شاي مع عشر قطع سكر.. ألا أنتحر كأمنا.. وأن ألتقي برجلٍ يحبني كمصطفى وأنجب منه طفلة رائعةً تشبهه.. وبالطبع.. أن أكتب لك هذه الرسالة.. أعلم كم تغريك الرسائل وكم تعشقين الاحتفاظ بها..

ليس عندي ما أوصيك به غادتي.. ولن أطلب منك شيئاً.. يكفيني كل ما أعطيتني.. فقط عديني.. أن تظلي كما أنتِ.. تفكّرين بقلبك.. وتتبعين جنون العاطفة..

شقيّتك.. سارة..».

******

- أقبلُ يا مصطفى..

أسقطَ الشوكة من يده، وبلع لقمته دون أن يمضغها..

تأمّلني بعينيه المرهقتين، ولاحتْ فيهما بشائر المُنى.. أتذكر كيف قبّل يدي ذاك الصباح عشرات المرات..

نعم قبلت.. فحياته المملة هي متعتي المُنتظرة.. وعرضه الموسوم ببرود العاطفة.. أفضل من تعاطي أشواقي في دمشق بلا أمل.. قبلت الرحيل معه إلى مدينة جديدة.. إلى شوارع لا تجول فيها أطياف ناسٍ أعرفهم.. كانت روحي بحاجةٍ للتوقف عن موتها الصامت.. وتعوّد الحياة من جديد..

- أعدك أن..

- أرجوك!!.. لا تعدني بشيء.. فالوعود قيودٌ مُحبِطة.. لا أحبها..

تبسّم لي.. وأكمل فطوره أمامي بفرح.. بينما احتسيتُ قهوتي في حضوره الأجمل..

في طريقنا إلى دمشق.. أمطرتْ بغزارة وبدتْ حركة السير شبه معطلة.. لكنني ما رغبتُ البقاء أكثر في بيروت.. أردتُ وداع عادل على مهل.. فقلبه ما عاد جاهزاً للمفاجآت السريعة.. وثمة الكثير منها بانتظاره.. سأخبره قرار تركي الجامعة.. وزواجي من مصطفى.. وسفري إلى أمريكا.. والأهم.. سأخبره أنها قراراتٌ لا رجعة فيها..

وكأي أنثى مقبلةٍ على الزواج.. توقعتُ اعتلاء الغزل عروش كلماته.. لكن الغلبة في حديثه كانت للسياسة..

بدا من حديثه تأثّره البالغ برحيل ياسر عرفات واستشهاد الشيخ أحمد ياسين في ذات العام.. ففقد قائدٌ ملهم للفلسطينيين، وزعيم حركة حماس، كارثتان مفجعتان موجعتان.. ورغم أن مصطفى كان حماسيُّ الفكر واللهجة.. لكنه تأثر أيضاً بموت رئيس السلطة الفلسطينية.. فعرفات كان أباً للجميع.. دمث الملامح.. بشوش الطلة.. ثم إن رحيل الأب يظل مصيبةً مهما كان وأولاده على خلاف..

أصغيتُ ولم أصغِ.. القادة والساسة، ودهاليز السياسة.. متاهةٌ لم تغرني يوماً.. كل افتتاني كان بمخارج حروفه.. بالبحّة التي جلبها البرد إلى صوته.. بذاك العِرق البارز فوق حاجبه الأيسر.. وبعينيه!!..

******

دمشق / نوفمبر - 2004

في دمشق.. كانت سلمى.. عادل.. والخالة خديجة.. بانتظارنا..

ضمّتني عمتي إليها شاحنةً صدري بطاقتها السلبية الخانقة.. ما زالت ترتدي الأسود منذ وفاة سارة.. وكأننا لم نبارح ذاك العزاء البائس.. حين كانت تجلس قربي، لتحكي ما حفظته من قصص الموت المفاجئ، محاولة منها تسكين مصيبتي.. فتزيدها اسوداداً..

هربتُ لغرفتي.. رميتُ الوشاح على السرير.. فلاحظتُ اصطفاف المخدات على شكل صندوقٍ مجوّف.. اقتربتُ قليلاً.. فرأيتها.. لم تكن نائمة.. أو ربما أيقظها ضجيجي.. نظراتها كمغناطيسٍ شدّتني نحوها.. حملتها بوجل.. قربتها مني لأعطّر رئتيَّ بعبقها.. ثم مررتُ أصابعي على وجهها الأملس.. ها هنا وجنتان ناعمتان كأجنحة الفراش.. وفمٌ أحمر مستديرٌ كقبلة.. وزغبٌ رسم حدود جبهتها.. وعينان كلؤلؤتين تلمعان في الظلام.. هي حقاً لا تشبه سارة.. بل لعلها أجمل!!..

«اتبعي عاطفتك يا غادة..» هذا ما كتبته لي أمها قبل أن تمضي.. وعاطفتي جرفتني إلى هنا.. إلى هذي الصغيرة اليتيمة ووالدها الحزين.. ولربما سيغزلان حولي شرنقةً أشد متانة من التي كنتُ فيها، فأفقد عدّاد زمني وملامح كوني.. لكنه قلبي.. سريع التورط والتسلط.. كيف لي أن أردعه؟!..

لم يقتنع عادل بسردي المطول عن ضرورة بقائي مع ألما، وعن سوء اختياري لدراستي الجامعية، وعن الفرص التي قد تنتظرني في كليفلاند.. أظن أن الفكرة التي جمّدتْ تفكيره وهو يسمعني، هي فكرة زواج ابنته الثانية من الرجل ذاته.. كان متردداً في القبول.. متحفظاً في الرفض.. يريد إلقاء مسؤولية القرارات السريعة على عاتقي، وكأنه ما عاد يثق بجودة قراراته.. انتابه شعور بفقد السيطرة، أو حتى في عدم أهميتها.. كان في نظراته إليَّ استهجانٌ وأسئلةٌ مخيفة.. وفي كلامه المقتضب إشارات تعجبٍ وتذبذب..

على خلاف سلمى.. التي راقتها فكرة مصطفى.. قالت لي:

«والله يا ابنتي ما عدتُ قادرةً على تربية الأطفال.. وهذه الصغيرة أتعبتني.. هي بحاجةٍ لأم فتيةٍ مثلك.. تتحملها وتصبر على مزاجيتها.. حتى مصطفى.. بحاجةٍ إليك.. آهٍ من حظه العاثر.. انظري إليه كيف ذبل وشاخ قبل أوانه..».

ظننتُ وأنا أحزم أمتعة الرحيل معه.. أن سعادةً تنتظرنا في النهاية،

تتحفز لتنبثق من رحم أحزاننا الطائلة.. فاتني أن الحزن عجوزٌ عقيمٌ عن مكاثرة الفرح.. وأن أجياله المنتظرة إن أتت، هي أشدُّ ضراوةً من سابقاتها..

******

زفافٌ من دون زفاف..

لا موسيقى.. لا زينة.. لا ثوب أبيض.. ولا حتى محابس زفاف.. كان ثمة شاهدان، مع العائلة المختصرة.. وكاتب العدل لعقد القران..

- حضّرتُ مفاجأة صغيرة للعرسان..

احتضنني عادل وهمس في أذني «ما عثرتِ على ثوبٍ كئيبٍ أكثر من هذا؟!».. ثم جهر بصوته يكمل حديثه..

- حجزتُ لكما جناحاً في فندقي المفضل.. أعتذر لأنني لم أقو على جلب الفرح إلى المنزل.. لكنني حاولتُ استطاعتي إتمامه هناك..

ثم نظر إلى مصطفى.. وقال له:

- يبدو أنك لصٌ بارع.. سرقتَ مني بسمتي أول مرة.. وها أنت تسرق روحي بكل دهاء!!.. سلمى لا تأخذي ألما معك.. دعيها هنا.. أريد أن أسهر مع حفيدتي الليلة..

صعد إلى غرفته وطلب من الخادمة إحضار الصغيرة إليه.. أما أنا، ركبتُ مع مصطفى سيارة والده ليقلنا إلى «جناح العسل».

وأسرف عادل - كعادته - في تزيين المكان.. شموعٌ وورودٌ ونجومٌ برّاقةٌ تدلّت من السقف بخيوط حريرٍ رفيعة.. جلعتْ السرير الأبيض يبدو وكأنه غيمةٌ شاردةٌ في السماء.. وكومةٌ من علب الهدايا والأكياس الفاخرة احتجتُ ساعاتٍ لفتحها.. كنتُ في ثوبي الشاحب، متطفلةً على ذاك النصوع..

بادرني مصطفى باقتراحٍ ليزيد الحرج في نفسي..

- اعذريني.. سأنزل لأحجز غرفة مجاورة.. أنام فيها حتى الصباح.. وغداً نعود لأخذ ألما وتوديعهم.. فطائرتنا مساء غد..

- لا.. أرجوك.. أبي زبونٌ قديم هنا.. كل العاملين يعرفونه.. فهو يستقبل معظم ضيوفه في هذا المكان..

- حسناً.. سأنام على الأريكة في الخارج إذاً.. اعتبريني غير موجود.. تصبحين على خير..

خرج وأغلق الباب خلفه.. فأمطرني جنوناً ووحدة..

ما انتظرتُ أن يطارحني الحب على هذه الغيمة.. لكنني تمنيتُ لو اقترح الخروج لحضور فيلمٍ سينما.. أو تناول عشاء متأخرٍ في مطعم قريب.. أو على الأقل طلب كوبي شايٍّ إلى الغرفة، ندفئ به أمسيتنا الباردة.. أما

أن ينزوي في دقيقة، ويهجرني وعرسي المزيف.. كان أقسى عليَّ من الفراق!!..

فكرتُ في الخروج إليه وطلب الطلاق.. فهذه الكذبة عسيرة الهضم من القضمة الأولى.. تنفستُ بعمق.. ثم ارتميتُ على السرير.. حشرتُ جسدي تحت الغطاء وبكيت.. قلت لنفسي.. «سامحيه.. ربما ما زال خجلاً منك يا غادة..».. وصدّقتُ العذر رغم سذاجته..

سال شعاع ضوءٍ على وجهي.. ففتحتُ عينيَّ لأرى مصطفى، وقد اقترب مني حدَّ قبلة، خيّل إليّ أنه سيفعلها..

- غادة.. غادة.. استيقظي.. أمي هنا..
- عمتي سلمى؟!.. ما جاء بها..
- تعلمين.. جاءت لتطمئن..
- تطمئن على ماذا؟!..
- آه غادة.. أرجوك.. انهضي إلى الحمام.. بللي أطراف شعرك.. و...
- وماذا؟!..
- لا أدري.. عليك أن تخلعي ثيابك وتلفي جسدك بأي منشفةٍ من الداخل.. أرجوك..
- لِمَ؟!.. لِم أفهم!!..
- لا تقلقي.. افعلي ما طلبتُ منك.. وأنا سأتدبر أمرها..

راقبته وهو يزيح الغطاء ليكشف ملاءة السرير.. ثم خدش طرف إصبعه بسكين الفاكهة، وقطر ثلاث نقطٍ من دمه على بياضها.. احمر وجهي، وتجمدت أوصالي.. سمعتُ صوتها يقترب من الغرفة.. فركضتُ إلى الحمام.. أغلقت الباب عليَّ بسرعة، وقفلته.. نظرتُ إلى نفسي في المرآة.. فلم أعرف خيال من هذه.. لا يمكن أن أكون أنا!!.. أي كابوسٍ انتحرتُ به يوم وافقته على هكذا كذبة؟!.. لِم فعلتُ هذا؟!..

مزّقتُ ثوبي بعصبية.. خيّل إليَّ خيط دمٍ نازفٍ ينسال بين رجليَّ.. فركتُ عينيَّ.. تفحصتُ جسدي.. كنتُ بخير.. لكن الصدمة صوّرت لي بشاعة المشهد..

ثم سمعتُ صوت «زغرودةٍ» منخفض.. لا بد أنها سلمى، تهنئ مصطفى على فحولته!!.. فتحتُ صنبور الماء البارد ليرش غزارته على رأسي.. لعل كل شيءٍ يختفي.. لعلني أصحو.. سترتُ بدني المتجمد بمنشفةٍ صغيرة.. وخرجتُ إليهما..

غمرتني وأرهقتني تقبيلاً وطبطبةً.. فبكيت..

- لا تبكي حبيبتي.. لا تخجلي مني.. أنا مثل أمك..

آهٍ يا سلمى.. ليس ثمة امرأة مثل أمي!!.. أمي.. ما كانت لتقبل هذا العرض الهزلي الرخيص.. وما كان لينطلي عليها كل هذا النفاق.. بعد ذهابها، اعتذر مني، وانسحب من جريمته ليدخن في الخارج..

ظللتُ كل اليوم في مرضٍ وصدمة.. كطفلةٍ تعرضتْ للاغتصاب.. لم أصدق كيف سمحتُ له بتعريتي في خياله.. ليسرق بكذبه عذريتي ويجعلني امرأةً من وهم!!..

وبدأتُ أشعر ببلل العار، يرتفع قليلاً قليلاً.. كنتُ على يقين من أنني سأغرق فيه يوماً ما..

******

كليفلاند / مارس - 2005

«في العاشرة.. كنتُ وكأنني في العشرين.. وفي العشرين.. شعرتُ بأنني في الأربعين.. عشتُ دائماً أكبر من عمري.. وفجأةً.. يوم عيد ميلادي الثلاثين.. أدركتُ أن طفولتي وشبابي نُشلا مني..».

ما زلتُ أحفظ تلك الكلمات التي قالها أحمد زكي.. وأحبه..

نحن لا نحب أناسٌ لا نعرفهم بمحض الصدف.. نحبهم لأن فيهم بعض ما فينا.. يتحدثون فينطقون شعورنا.. يمثّلون فيعكسون دوافعنا.. فإن رحلوا.. أطفأوا شمعةً كنا نحارب بها الظلام.. وتركونا لرهاب العمى!!..

اليوم.. قرأتُ خبر وفاته بعد صراعٍ مريرٍ مع «سرطان الرئة».. فأصابني الغم.. ذاك اليتيم الأسمر.. فاقم في روحي- برحيله- إحساس اليتم!!..

كنتَ إرثي من أمي يا زكي!!.. أحبتك قبلي، حين مثلتَ شخصية «طه حسين» في مسلسل «الأيام» أواخر السبعينيات.. ولكثرة ما كنتَ محبوباً عندها.. ورثتك منها، فأحببتك أكثر!!.. ولا أدري لم تفعلون بي هذا؟!.. أنتَ وكلُّ مقتنياتي منها.. تخونوني بالرحيل!!..

مستاءةٌ ظللتُ طوال اليوم.. أهدّئ أحزاني بكتماني.. وأشغل نفسي بأعمال التنظيف المنزلية كي أنسى.. أعددتُ وجبةً خفيفةً تناولتها بقلة شهية.. تحدثت مع عادل أكثر من ساعة.. ولعبتُ مع ألما حتى نامت.. ثم قررت البدء بمراجعة فواتير محل الأنتيك.. قد تراكمت لمدة طويلة، وما كانت سارة لتسعد بهذا الإهمال..

جداول كثيرة وأرقامٌ معقدة.. احتجتُ لآلةٍ حاسبة.. بحثتُ بين أشيائها فلم أجدها.. توقعتُ أن أعثر على واحدة في مكتب مصطفى.. رغم أنني ما تعودتُ الدخول إلى تلك الغرفة ما لم يناديني إليها..

ليستْ على النضد.. ولا في الأدراج.. ولا بين الكتب والأوراق.. ثمَّة صناديق صغيرة في الرف العلوي.. ربما تكون في أحدها.. نظرتُ في الأول، كان قد جمع فيه خرداواتٍ وداراتٍ كهربائية.. وفي الثاني ألبومات صور وتذكاراتٌ من الأمكنة العديدة التي زارها.. وفي الثالث أدوية.. وفي الرابع.. وفي الخامس..

تعبتُ من البحث.. ربما عليَّ شراء واحدةٍ جديدة في الغد.. قلتُ لنفسي.. ثم لفتتْ نظري علبة وردية مطرزة.. شاذةٌ بين أشيائه.. توقعتُ أن تكون لسارة.. تطفلتُ عليها.. وفتحتها.. فعثرتُ في الداخل على لصاقاتٍ ملونة صغيرة، بعباراتٍ بعضها مضحكٌ وبعضها مثيرٌ والبعض ملغمٌ ومشفّر.. مكتوبةٌ

بخط سارة، وعلى معظمها آثار أحمرِ شفاهها.. كان قد دوّن مصطفى على الوجه الخلفي.. تواريخ وأحرف لم أفهمها، ربما هي رموزٌ خاصةٌ بهما.. ووجدتٌ أيضاً بطاقاتٍ لكل الأفلام التي شاهداها معاً في السينما.. وفواتير للمطاعم التي أكلا فيها.. وأساور الدخول إلى ديزني لاند وأمكنةٍ أخرى عديدة..

كان حقاً يريد امتلاك ذاكرةٍ معها.. ما زال يحتفظ بكل هذه القصاصات والخربشات كيلا ينسى أي تفصيلٍ يخصها!!..

من المحزن أن تثير شفقة نفسك على نفسك.. وأن تدرك عدائيتك لها وتآمرك عليها لصالح وهمٍ مؤبد.. كضريرٍ يتسلق حبال السيرك الرفيعة.. يُراهن على عدم السقوط وليس له خبرة التوازن..

ماذا تفعلين يا غادة؟!.. واجهتُ نفسي..

أتراه يهتم يوماً بتفاصيلك مثلها؟!.. أم ستبقين في وهمكِ.. منسيّةً على هامشه العريض؟!..

كليفلاند - ديسمبر 2005

«يا آنسة!!.. يا آنسة!!..».

اعترضني.. وقد أنهيتُ قهوتي، وقمتُ لبعض التسوق الشيق في «لورين آفينيو».

رمقته باستغراب.. ليس تحدثه بالعربية ما لفتني، فالكثير في هذا السوق عرب.. لكنها اللهفة في عينيه.. كتائهٍ عثرني بعد فراقٍ مرير..

بسط لي كفاً فيها قرطٌ فيروزيٌّ جميل..

«سقط منكِ».

حثّني على استرجاعه بعينين جريئتين.. فتأملت القرط بخيبة..

هو ليس لي.. هذا الصباح، نهضت من فراشي عكرةٍ منزعجة.. كنت قد نسيت نافذة الغرفة نصف مفتوحة لانشغالي بحديث «نائلة تويني» بعد اغتيال والدها في الحادث المريع.. فصحيفة «النهار» هي المفضلة عندي هنا، أقرأها بشغفٍ مأخوذةً بالعناوين والتفاصيل، لا سيما بعد اغتيال رفيق الحريري واندلاع ثورة الأرز.. كان جبران تويني أحد المؤثرين فيها مع فريق «14 آذار».. لذا لم يكن مستغرباً التخلص منه.. لكن سلسلة الاغتيالات اللامتوقفة في لبنان غدت مخيفةً ومؤرقة.. نسيتُ إذ غرقت في أمسيتي السياسية نافذتي النصف مفتوحة، فتراكم الثلج على حافتها وتسرب إلى الأرضية بسهولة.. أذكرُ كيف نهضت بصعوبة وعوّضت جسدي بحمامٍ ساخن.. ارتديتُ بعده ملابسي على عجل بغير أناقة.. وخرجت إلى السوق لتبضع فاكهة طازجة وتناول فطورٍ شهيٍّ في أحد المطاعم العربية هنا..

قد كانت ربما فرصة سهلة لكسب صديق في هذا البلد، لو ارتديتُ أقراطاً هذا الصباح!!..

ملَّ صمتي.. فشدَّ يدي، وأرخاه على راحة كفي.. ثم تمتم مبتسماً..

«لا شكر على واجب..».

رغبتُ الكذب، وكأنها صارت عادتي.. أجل هو ليس لي، ولكن لا ضير أن يكون.. وسوست نفسي.. فقلتُ له:

- آه.. اعذرني.. لم ألحظ سقوطه..
- قد فعلتُ أنا.. ويكفي أن يفعل أحدنا..

مدَّ يده ليصافحني..

- عماد.. اسمي عماد.. من الشام..

صافحته بابتسامة.. فسألني..

- ما اسمك يا خجولة؟..
- غادة..
- إنتِ من سوريا؟!..
- إيه من الشام..
- تدرسين هنا..
- لا.. أنا زائرة..

كذبتُ مرة ثانية.. وواصلتُ نسج الأكاذيب في كل إجاباتي.. حتى مللتُ من فرط الكذب.. فكل ما فيه كان صادقاً.. نظراته، حركاته، وحتى كلامه.. بدا لي حقيقياً.. خفتُ منه.. خفتُ من التورط معه في حكايةٍ أكون فيها الطرف الفاسد.. ولعلي لم أمتلك الأصدقاء لأنني.. لا أستحقهم..

ودّعتهُ ودلفتُ عائدةً إلى روتيني..

******

أمام المرآة.. كنتُ أنظر إلى خياله وهو يهندس ربطة عنقه مع ياقة القميص الأبيض..

- تأخرتْ كريستين عن القدوم لمجالسة ألما.. ربما لا داعي لذهابي معك..
- لا تتهربي من الذهاب.. عليك أن تخرجي.. أن تخالطي الناس.. الحياة مفتوحةٌ يا غادة ولا أفهم انغلاقك فيها..
- لو ذهبت ستضطر للرجوع معي.. وربما..
- ربما أرغب مرافقة ميسا..
- ...
- نعم يا ستي.. ربما سأرافقها بعد العشاء إلى بارٍ قريب.. سنحتسي كأسين وأقلّها للمنزل.. لن أنام عندها الليلة.. بل سأرجع لأختبر دهاءك الاجتماعي.. أريد منك التعرف على جميع الحاضرين.. سأسألك عن أسمائهم، وصفاتهم، وما كانوا يرتدون.. وبدل أن تطلبي مني شراء قطة.. حاولي كسب صديق أو صديقة!!..

كنتُ على وشك صفعه لولا وصول كريستين..

بات هذا الرجل أكثر غرابة.. خريفيّ المزاج.. تارة يصفو وتارة يتعكر.. يبدل أقنعة الحزن والبهجة كما يبدل قمصانه.. لعلها الطبيبة المغربية الجديدة «ميسا».. هي من حركتْ خريفه ليستفزّني..

في حفل العشاء الفاخر.. كان الجميع مبتسمين.. فأكاديميتهم الطبية تحتفل بعامها الستين.. وإنجازاتها الباهرة صدحت داخل أمريكا وخارجها..

تعرفتُ على بعض من معي على ذات الطاولة.. لكنني لم أكترث لما لبسوا.. ولم أحفظ أسماءهم.. كل تركيزي كان على ميسا.. التي فتنت مصطفى بجسدها الناري.. لم تكن جميلةً كما توقعتها.. لكنها مغريةٌ كما توقعتها..

آهٍ منا نحن النساء.. أعداء بعضنا.. وأعداء أنوثتنا.. نتنافس لنزداد فتنةً تكون مصدر قوتنا ودافع كرهنا ومسبب حسدنا..

- أنت هنا؟!..
- عماد؟!..
- لم تخبريني أنك تعملين معنا!!..
- آه.. أنا لا أعمل هنا.. أنا فقط مدعوة..
- مع من حضرتِ؟..
- مع مصطفى.. عفواً.. مع د. مصطفى..
- آه.. يا محاسن الصدف..
- تعرفه؟!..
- مصطفى الطبيب المسؤول عني في القسم.. أنا أختص تحت إشرافه..

«هادا طبعاً جوا المشفى..» قاطعه مصطفى.. كان قد استرق آخر الحديث..

«وبرا المشفى؟!..» سألتهما..

«عماد صاحبي.. أخي.. وصديقي..» أجاب مصطفى وقد ربت على كتف عماد..

- طلبتُ منك أن تتعرفي على الناس.. فلم تعثري على غير عماد!!..
- الحقيقة..

«قد سبق والتقينا صدفة في السوق.. وتحدثنا بحكم أننا سوريان..» برّر عماد تلكُئي.. ثم سألني ومصطفى..

- إنتو إخوة صح!!..

انخطف لوني..

- لا.. لا يغرك الشبه.. غادة زوجتي.. عذراً منكما.. عليَّ التحدث إلى أحدهم..

ابتعد مصطفى.. وشعرتُ أن لم يبقَ من الضجة إلاي وعماد.. وقطرات الخجل على وجهي..

- لم لم تخبريني أنك متزوجة؟!..
- لم تسألني..

- البوح بهكذا حقيقة لا يحتاج سؤالاً.. أن تأتي إلى بلدٍ غريب مع زوجك.. ليس في هذا ما يستحق التكتم..
- عماد.. الموضوع..
- لا تشرحي غادة.. لا داعي.. أعتذر على تطفلي..
- عماد..

ابتعد أيضاً.. راقبته وهو يفتعل الحديث هنا والضحك هنا.. وبين الكلمة والابتسامة يرشقني بنظرة حادة..

كنتُ قد نسيتُ مراقبتي لدلع ميسا على مصطفى.. كنتُ فقط أواصل التضرع لعماد بنظراتٍ حزينةٍ مطفأة.. وأعلم أن في داخله قلباً أحبني.. هو ما ردّه إليّ بعد دقائق.. لفَّ ذراعه حول خصري ومشى بي خطواتٍ إلى منأى عن الضجيج.. ما زلتُ أذكر رائحة عطره ذاك المساء، وعلو أنفاسه.. ياقة قميصه الناصعة.. وربطة عنقه الحمراء المخملية.. أتذكر أيضاً كم كانت ذراعه الملتفة حولي لطيفة ودافئة..

- ثلاثة عشر يوماً مروا على لقائنا العابر.. وما زالت عالقةً في ذهني كأننا لم ننهِ فنجان قهوتنا بعد.. ماذا عليّ أن أفعل؟!.. أخبريني؟!..
- أنا..

تحيّرتُ في عينيه التائهتين..

- أنتِ التي انتظرتها لتأتِ.. فلم أتيتِ معه يا غادة؟!..
- مصطفى هو..

حرتُ بماذا أصفه له.. فقاطعني..

- الكارثة أنه مصطفى.. ربما لو كان أي رجلٍ آخر.. لرضيته غريماً في حبك.. لكنه مصطفى!!..
- أنا ومصطفى..

نحن ماذا.. ما ستقولين يا غادة؟!..

- لم يخبرني أنه تزوج بعد سارة.. لم أخفَ عني هذا؟!..
- ربما لأنَّ من المحرج له أن يخبرك بذلك.. فسارة كانت أختي..

أفلتني وتلبّسه الوجوم..

- تزوجتِ من زوج أختك؟!..
- عماد.. حكايتنا طويلةٌ ومعقدة.. والأفضل ألا تتعب نفسك في فهمها..
- معك حق..

غادرني وترك الحفل خلفه.. بدا لي المكان بعد رحيله كئيباً.. كل الناس

هنا غرباء.. إلا زوجي وعشيقته السخيفة.. كان عليَّ انتظاره لينهي غزله معها.. فليس من الآمن الرجوع وحيدةً في ساعةٍ كهذه إلى المنزل.. كان عليَّ وخز نظري برؤيتهما أكثر، وقلبي مفطورٌ على عماد..

جوار سيارته الصغيرة.. شعر مصطفى بتوعكي النفسي.. كنتُ غير مضطرةٍ ولا قادرةٍ على إخفائه.. أمسك يدي وطبطب عليها بالأخرى.. قدم لي اعتذاراً بارداً عن تركي في الحفل وحيدة.. وبعد لحظات أتتنا ميسا.. وركبت معنا في المقعد الخلفي.. دردشتْ معي طوال الطريق إلى منزلها.. بارعةٌ هي حقاً في الترويح عن النفس..

حين وصلنا.. دعتنا لاحتساء الشاي المغربي.. نظر إليّ مصطفى يريد موافقتي.. فقبلتْ.. الحقيقة أنني أحبُّ «الأتاي» كثيراً.. تذوقته أول مرة في مطعمٍ مغربي في القاهرة مع عادل وسارة.. تناولنا معه يومها حلوى «الشباكية» اللذيذة.. وظللنا أنا وسارة ننادي النادل ليصب لنا المزيد.. ونراقبه وهو يسكب الشراب الأخضر الساخن في الكؤوس الصغيرة المزخرفة من علو مرتفع، ليشكل تلك الرغوة المغبرّة.. نرتشفها ونضحك.. ثم نناديه مجدداً..

فتحتْ لنا باب شقتها بكثيرٍ من الترحيب.. واستقبلتنا كما لو أننا هبطنا عليها من السماء.. لملمتْ بعض الملابس والكتب وبقايا علب الأكل الصيني الفارغة.. ثم أشعلتْ شمعتين معطرتين لتغير رائحة المكان.. وضعتْ مخدة صغيرة خلف ظهري.. وناولتني خفاً منزلياً مريحاً.. لكأنها لاحظتْ انزعاجي من ارتداء الكعب العالي طوال السهرة..

استأذنت لتعد الشاي.. واختفتْ في الرواق المظلم..

تحيرتُ في شأنها!!.. لم هي مسرورة من حضوري.. أليس طموحها الاختلاء بزوجي، وجرجرته إلى سريرها الدافئ!!..

كان مصطفى قد قام إلى نضدٍ قريب.. وفتح اللابتوب الموضوع فوقه.. أدخل كلمة السر بسهولة، وولج إلى بريده الإلكتروني.. وصلته رسائل عديدة.. تحمّس لقراءتها.. قام فأحضر علبة السجائر والولاعة من غرفة مجاورة أحسبها غرفة نوم.. وجلس يدخن ويقرأ..

هو في إلفة مع المكان.. مع أثاثه.. مع أشيائه.. وخفاياها..

عادتْ مرتديةً ثياب نوم قطنية.. تحمل صينية الشاي بكؤوسها الثلاث.. سكبتْ لي كأساً باحترافية أهل المغرب، وضعته أمامي بابتسامة.. وسكبت الثاني لها.. ونصف الثالث لمصطفى، وضعته على طاولةٍ قريبة منه..

- لا يحبه.. ولكنه يحب رائحته..

قالت لي..

- إنت من وين بالمغرب؟..
- أنا من فاس..
- يقولون إن المغرب بلد جميل..
- زين بالزاف!!.. عليكِ أن تزوريه..

ضحكتُ، وشربتُ الشاي على توترٍ وعجالة.. هذه اللطافة الكلامية والسلوكية تقلقني.. قمتُ إلى مصطفى.. وطلبتُ منه أن يقلّني إلى المنزل.. فأعطى ميسا ما بقي من سيجارته.. واستأذنها إبقاء كل شيء على حاله..

«سأعود..» قال لها..

على ناصية البيت.. أعطاني مفتاحه.. ودون النظر إليّ همس.. «لا تنتظريني.. سأتأخر..».

بكيتُ بهستيريةٍ تلك الليلة.. فالرجل الذي أحب، يتبعثر مني في أسرّة الأخريات.. وحالة «اللاأمل» في حبه تزداد رسوخاً مع كل دخيلة!!..

قررتُ بعد حزنٍ طويل البحث عن شفاءٍ منه.. وبالطبع.. ما كان في دائرتي غير عماد..

******

لم يرجع مصطفى مساء أمس.. ولم يتصل.. لا بد أنه نام عند حبيبته الجديدة وترافقا صباحاً إلى العمل..

كنتُ قد خرجتُ لإحضار الجريدة حين توقفتْ أمامي سيارة سوداء حديثة.. وانخفض شباكها.. ليطلَّ وجه عماد أمامي.. وجوار مقعده فنجان «ستاربكس»، تفوح منها رائحة القهوة..

- صباح الخير..
- صباح النور.. كنتُ سأهاتفك بعد ذهاب ألما إلى الحضانة..
- كيف وليس معك رقمي؟!..
- آه صحيح..
- مشغولة؟!..
- أبداً..
- معك ثلاث دقائق لتغيري ملابسك وتأتي..
- إلى أين نذهب؟..
- اليوم.. سترافقيني إلى العمل.. هنالك سوقٌ شعبيٌّ لمزارعين محليين، في حديقة المستشفى.. هل زرته مرة مع مصطفى؟..
- لا..

- إذاً ستحبين مرافقتي.. هيا.. ضيّعتِ من الوقت دقيقةً في السؤال..
- لن أتأخر..
- لا تخافي!!.. سأنتظرك حتى لو تأخرتِ عمري كله.. هيا..

ليس في الحياة ما هو أنقى من اهتمام الآخرين بك.. يُشعرك بالدفء.. بالأمان.. بالسلام الداخلي.. ويسرقك من ظلامك إلى نورٍ ساطع ترى معه الأشياء أجمل..

سعدتُ جداً بحضوره.. وكان كما عودني بعد ذلك.. سابِقي بكلِّ مبادرة.. تحدّثنا طوال الطريق عن عموميات حياتنا.. عن ألما.. عن المدينة.. وعن ذكرياتنا في دمشق..

حين وصلنا.. دلّني على مكان السوق.. وودّعني..

مزارعون كثر.. حضروا إلى هنا من الصباح الباكر.. نصبوا خيامهم.. ورتبوا صناديق الخضروات والفاكهة الطازجة.. وسجلوا على الألواح السوداء الصغيرة أسعاراً منافسةً بالطباشير الملون.. رائحة الطبيعة منعشة للروح..

تذكرتُ حين شممتُ رائحة الخبز الطازج، أنني لم أتناول فطوري.. اشتريتُ من الخباز المسنِّ رغيفاً أسمراً بالأوريغانو.. وتمشيتُ بين الأكشاك العفوية أدلل حواسي الخمسة بجمال الأصناف ونقائها.. وبعد أكثر من ساعة ارتفعت البهجة في المكان أكثر.. إذ بدأ الأطباء والممرضات بالوفود إلى السوق.. وكذلك أناسٌ من خارج «كليفلاند كلينك».. وبعض العازفين بآلاتهم الغريبة..

لمحتُ عماد وهو يقترب مني بثيابه الزرقاء كبحرٍ عثر على شاطئه..

نظر داخل سلتي وقلب الأشياء التي اشتريتها بفضول..

- ها.. تبضعت!!..
- نعم.. اشتريت بعض الفجل الطازج.. وعلبة «عنبية» لألما فهي تحبها كثيراً.. واشتريت تفاحاً، وبعض الجرجير والجزر، وأعواد الراوند..
- يبدو لي أنك طباخةٌ ماهرة..
- لا أعرف.. لكنني أحب إعداد الطعام للناس الذين أحبهم..
- ستعدين شيئاً لي؟..
- لنرى.. ربما نهاية الأسبوع.. هل رأيت مصطفى اليوم؟..
- لا.. لديه عملية طارئة.. وجدوله اليوم مزدحم.. لا تقلقي سأقلك إلى المنزل حين تنتهين..

انحنيتُ للطفه..

ثم اشترى لنفسه وجبة خفيفة، تناولها معي.. وعاد ليكمل عمله.. فيما

قررتُ أنا انتظاره في مكتبة المستشفى.. أطالع أي كتابٍ يجذبني..

وعدني حين ودّعني.. أن يتصل بي نهاية الأسبوع.. كان قد بدأ عرض فيلم جديد لـ«بوو» الشخصية الكرتونية المفضلة لدى ألما، ورغبتُ أن يرافقنا لحضوره.. لكنه لم يتصل.. فذهبنا بدونه.. وبالطبع دون مصطفى، الغير آبه..

كان يومي ناقصاً.. إذاً قد بدأ عماد بشغل مكانٍ لنفسه داخلي.. وظللتُ طوال النهار متأرجحةً بين مهاتفته أو تجاهله.. لكنني في المساء وبعد ترددٍ عنيف.. اتصلتُ به..

- ألو.. عماد..
- مساء النور..
- أنا آسفة.. مساء الخير..
- مساء النور مرة تانية يا ستي..
- وعدتني أن تكلمني..
- أها.. تتصلين للمعاتبة..
- لا.. ليس هكذا.. شغلت بالي فحسب..
- لقد اضطررت لمناوبة طارئة بدل زميلٍ لي.. ولهذا لم أتصل.. اعذريني..
- لا بأس.. المهم أنك بخير.. تصبح على خير..
- وأنت بخير..

أغلقت السماعة بسرعة.. كما لو كنتُ مراهقةً تخشى مداهمة أمها.. وبعد ثانيتين رن الهاتف من جديد..

- ألو..
- اسمحي لي أن أعوض عليك..
- هههه..
- لم تضحكين..
- كنت على وشك الاتصال مجدداً.. قد كنت فظةً بعد الشيء بإنهاء المكالمة بسرعة..
- الحمد لله.. أنا لم أقل شيء..
- أتقصد أنني فظة؟!..
- أجمل فظةٍ عرفتها في حياتي..
- بالمناسبة أنا لا أقبل الغزل في العادة..
- غيّري هذه العادة لأجلي.. أو اجعليني استثناءك..

- لا تخرج عن الموضوع.. ها.. أخبرني.. كيف ستعوض عليّ تأخرك اليوم؟!..

- أدعوك إلى منزلي المتواضع.. نحتسي القهوة.. ونخرج للتنزه قليلاً في المدنية.. هنالك معرضٌ للفن الشرقي في معهد كليفلاند للفنون.. إن أحببت نستطيع زيارته معاً..

- وألما.. كأنك نسيتها..

- يمكنكِ الاتصال بكريستين لتلازمها.. ما رأيك..

- حسناً.. سأنسّق معها.. وأهاتفك من جديد..

لم تمانع كريستين الحضور.. فقد عرضتُ عليها مبلغاً مضاعفاً لأنه يوم عطلتها.. وحين وافقتْ.. أسعدتني..

اتصلتُ من فوري بعماد.. أعطاني عنوانه.. وقال لي.. «أنتظركِ..».

دخلتُ إلى المطبخ أرنّم أغنيةً قديمة.. قررتُ إعداد شيءٍ لذيذٍ آخذه معي صباح الغد.. أتذكر جيداً.. كم كنت سعيدة وأنا أخفق البيض وأعاير الدقيق والسكر.. وأضيف شتى النكهات التي أحب.. وحين انتهيتُ من تزيين كعكتي.. تفاءلت.. فلطالما كنت أربط نجاح الكعك أو فشله بمناسبة تحضيره.. قد نجح.. إذاً غداً سيكون جميلاً..

تلك الليلة.. نمتُ قبل عودة مصطفى.. لم أتذكر انتظاره.. أحدهم ينتظرني.. قد صرت «المنتظَرة» لا «المنتظِرة».

******

في الصباح التالي.. استيقظتُ على رسالةٍ من مصطفى.. يخبرني فيها أن لديه عملاً طارئاً ولن يرجع طوال اليوم.. قلتُ لنفسي.. من الأفضل ألا يرجع.. كيلا أدخل في أسئلةٍ وأجوبةٍ، وعلامات استفهام وتعجب..

ركبتُ سيارة الأجرة وأعطيته العنوان.. وظللتُ طوال الطريق أفكر في مقولة «ليو تولستوي» في روايته الشهيرة «آنا كارنينا».

«إننا نبحث عن السعادة غالباً وهي قريبة منا.. كما نبحث في كثير من الأحيان عن النظارة، وهي فوق عيوننا..».

على باب المنزل.. توقفتُ لبرهة.. فطنتُ أن ما أفعله، قد لا يكون الصواب.. قلتُ لنفسي..

«ربما أكون امرأةً سهلة المنال في نظره.. ربما أكون أسهل عبوراً بالنسبة إليه من أية امرأةٍ أخرى.. يعلم أنني متزوجة، ولدي طفلة، وأدير متجراً مربحاً في المدينة.. إذ لا حاجة لي بالمال ولا الاستقرار.. ولن أطحن صبره بنكدي وفراغي..».

نفضتُ الوساوس اللعينة من رأسي.. ورننتُ الجرس.. لحظات.. وفتح الباب لي بكامل أناقته.. ثم دعاني للدخول.. كان قد فرد سجادة حمراء طويلة.. من الباب الرئيسي إلى غرفة الجلوس.. نظرتُ إليها وضحكت..

- لا.. لا.. لا تضحكي.. كان عليَّ مدّها ترحيباً بك..

دخلتُ نصف خائفة، نصف راغبة.. كنتُ قد أعددتُ كعكة الجزر لنتشارك حلاوتها مع القهوة.. رائحة ورد البنفسج وصوت «جوليا بطرس» حمساني لمغامرة الدخول..

بدتْ شقته أجمل مما توقعت.. رحبةٌ مضاءة.. أنيقة الأثاث.. باذخةٌ لرجلٍ يعيش وحيداً..

- أهلاً وسهلاً.. توقعتُ ألا تأتي!!.. كيف تشربين القهوة..

- سادة.. من دون حليب.. من دون سكر..

- تكرم عينك.. سأحضر صحنين لنتذوق الكعكة.. تبدو شهية!!.. ها.. حدثيني كيف أنت..

رأيته يسكب القهوة في فنجانين جاهزين موضوعين على طرف البار.. فامتعضتُ بعض الشيء..

لم نستسيغ الكذب في توقعاتنا مع من نهوى؟!.. كيف ما توقع حضوري، وقد رتب كل شيء، وأعد القهوة، ونسق الورد، وأدار الموسيقى؟!.. أيعقل أن تكون شقته جاهزة دوماً لقدوم أي ضيف غير متوقع؟!..

لاحظ تكشيرتي.. فوضع الفنجان قربي وقال لي:

- ما بكِ؟!..

- قد أخبرتُك بالأمس أنني سآتي.. كيف لم تتوقع حضوري؟!..

- تمنيت أن تأتي.. ورسمتُ حلماً جميلاً يليق بحضورك.. لكنني في الحقيقة توقعتُ ألا تأتي..

- لمَ؟!..

- لأن دخولك إلى شقة شابٍ لا تعرفينه جيداً.. يحتاج لكمٍّ هائل من الثقة..

- ألستَ أهلاً لثقتي؟!..

- أتعلمين.. ما عادت المعاني الجميلة في الحياة تعنيني ما لم تكن منك.. أرجوك لا تتوقفي عنها..

أمضينا ساعتين من الحديث والضحك، وشرب القهوة.. تناول ثلاث قطعٍ من قالب الحلوى.. وظلَّ يبدي تعبيراً عن فرحه بي.. وبصباحه معي..

أخبرني أنه الشقيق الأصغر بين ثلاثة إخوة.. وأنه جاء إلى هنا ليحقق

حلم والده بأن يكون أحد أبنائه طبيباً ناجحاً يوكله مهمة إدارة مستشفاه في دمشق.. وأنه لو امتلك الخيار لفضّل أن يكون قبطاناً يجول الأرض بحراً أو طياراً ليطوفها في السماء..

- ها.. جاهزة؟!..
- أنا جاهزة.. إلى أين نذهب..
- نتمشى قليلاً فـ«الداون تاون».. ثم نذهب إلى المعرض.. آه تذكرت.. أنت معزومةٌ بعدها على العشاء أيضاً..

ضحكتُ.. وخرجنا..

منذ وصولي إلى هذه المدينة، وأنا أحاول استكشافها وحيدة.. كانت تلك أول مرة، تشعرني بأهمية الشريك في النزهة.. أخذني إلى شوارعها المفضلة، واشترى لي لفافة من الفراولة الطازجة المغموسة في الشوكولا.. وأمام مدخل متجرٍ للملابس أوقفني..

- ما رأيك أن ندخل..
- أنا لا أحتاج لثياب جديدة.. إن أردتَ شراء شيء، يمكنني مساعدتك..
- اعذريني.. لن ألجأ لك بهكذا مهمة..
- لم تقول هذا.. ألا يعجبك ذوقي؟!..
- الذوق يعجبني.. ولكن الألوان!!..
- أنا أحب الألوان الداكنة..
- و أنا لا أحبها..

شدّني من ذراعي إلى الداخل.. وراح يختار لي قمصاناً بألوان زاهية.. وفساتين مبهرجة.. وحقائب ملونة.. ثم أرغمني على تجريبها كلها.. كنتُ منزعجة بعض الشيء.. فأنا لا أحب أن يتدخل أحدٌ فيما أرتدي.. لكنه كان ألطف بكثيرٍ من رد رغبته..

حين انتهيتُ من التجريب.. وخرجتُ من غرفة القياس.. تفاجأتُ به وقد اشترى كل شيء.. وصارت الأكياس جاهزة..

- تفضلي..
- لكنني..
- أرجوك لا تقولي أي شيء.. هذا اليوم لك.. أنت أميرته.. أرجوك..

حملتُ أكياسي ببعض الخجل.. ثم أكملنا يومنا..

كان معرض الفنون ملفتاً جداً.. فيه تحفٌ شرقية مفعمةٌ بروح تراثنا.. قد أعدها طلاب الدفعة الأخيرة، كمشاريع لتخرجهم.. وعرضوها في مزادٍ

ريعه هبةٌ لجمعية أطفال السرطان في المدينة.. اشتريتُ لنفسي فانوساً نحاسياً وبروازاً من الزجاج الملون.. كذلك عماد اشترى بعض الهدايا لزميلٍ له تزوج حديثاً..

انتهت الساعات الجميلة بسرعة.. أوصلني إلى المنزل، وشكرني على تمضية اليوم معه.. كنتُ أود لو باستطاعتي حضنه أو تقبيله.. فقد كنتُ ممتنةً للسعادة التي جعلني فيها..

دخلتُ غرفتي.. وضعتُ شمعةً داخل الفانوس لينير.. وصورةً لعادل في البرواز الأنيق.. ثم بدأتُ تعليق الثياب في الخزانة.. فسقط من أحد الأكياس ورقة صغيرة.. كُتب عليها..

«الفراشاتُ تنجذب للضوء، لألوان الربيع.. لا تتدارى خلف الضباب!!..».

******

كليفلاند - فبراير 2006

لا يرحل الشتاء بسهولة عن هذه المدينة..

كنتُ قد دعوتُ ميسا لتناول الفطور معي في المنزل.. وأعددتُ لها البان كيك بالعسل والقرفة.. حدث أن صادفتها أكثر من مرة في زياراتي للمستشفى.. ولا أدري لم غيرت رأيي فيها، وكيف صارت صديقتي..

- صباح الخير.. يعيشك..
- صباح النور.. ادخلي بسرعة.. البرد قارس..

ألقتْ معطفها بعشوائية على الكرسي.. وتبعتني بحيويتها إلى المطبخ..

- هل سمعت الأخبار اليوم؟.. يتحدثون عن غرق عبارة مصرية عائدة من السعودية.. كان على متنها أكثر من ألف راكب.. بعضهم عمال وبعضهم حجاج وبينهم عوائل مغتربة..
- يا الله.. أنا لا أتابع الأخبار يومياً.. تعلمين ذلك..
- آه.. يهمك فقط أخبار شارون!!..
- نعم.. أتتبعها لأسمع خبر موته..
- غادة.. هو في غيبوبة ولن يصحو منها.. تستطيعين عدّه مع الأموات سلفاً..
- ما دام يتنفس، ولو بواسطة آلة، إذاً فهو حي!!..
- حدثيني.. ما أخبار عماد؟!..

غيّرت الحديث وسألتني بدهاء.. فقد سبق أن أخبرتها عن طبيعة علاقتي بمصطفى.. ولهذا بدأت تتوقع تطور شيءٍ مع عماد..

- عادي.. أهاتفه أحياناً.. يهاتفني.. نخرج للغداء.. للعشاء.. هيك يعني..
- فقط!!..
- فقط.. نحن مجرد أصدقاء..
- أصدقاءٌ على طريقتي ومصطفى.. أم ماذا بالضبط؟!..
- لا داعي لهكذا سؤال.. تعلمين أنني لا أفكر مثلك..
- صحيح.. أنتِ لا تؤمنين بفصل رغبات الجسد عن الحب.. وأظنك تعين أيضاً، أن عماد ليس كمصطفى..

أخرجتْ علبة آيس كريم من الثلاجة وراحت تحشو فطائرها وهي تصدر طقطقةً لجذب ألما إليها.. كانت محقة في تحليلها.. فمصطفى بعد أن خسر أختي.. عاد لملاحقة النساء وانتقائهن كقطع الحلوى بين الحين والآخر..

لكن عماد ينتظر مني ما هو أكثر من حلاوة الأنوثة.. فهو ليس زيراً بطبعه.. ولا خائناً لصديقه..

- أتعلمين ما يحيّرني فيكِ يا غادة؟!.. كيف لم تحبيه بعد؟!..
- عماد؟!..
- لا.. أعني مصطفى.. كيف يمكن أن تعيشي مع رجلٍ غامضٍ مثله في ذات المنزل لثلاثة أعوام، دون أن تشتاطي رغبةً لاقتحام عينيه بأنوثتك الخجولة؟!.. أتعلمين.. تغزل بي مرة وقال لي.. «قد أغرمتُ بكل تفاصيلكِ إلا وقاحتكِ في السرير».

ثم ضحكتْ بفجور كسّر قلبي إلى دقائق تناثرتُ في فراغي.. فأجهضتْ أملاً جديداً بحبه..

اعتذرتُ منها.. لم أبالي..

قمتُ فتوضأتُ وصليتُ الظهر في غرفتي.. كنتُ قد قررتُ ملازمة الصلاة مذ رأيتُ عماد مرة يفترش الأرض بمعطفه في مبنى تجاري كبير كيلا يفوت موعد صلاته..

- أنا آسفة.. ما كان عليّ قول ذلك.. فمصطفى شريككِ في النهاية..

أحسّتْ بسخافة اعترافها فلحقت بي لتعتذر..

- لا عليك.. كلامك عن مصطفى لا يؤثر بي.. لكنه يمسُّ ذكرى أختي التي كانت حبيبته..
- أخبرني كم كان يحبها..
- والله لا أدري كيف هو الحب عنده.. لو أحبها حقاً كما يدّعي، لكان عليه أن يظلّ على حبه، فلا ينجرف خلف رغباته كرجلٍ أجوف..
- هو رجلٌ في النهاية.. لن يعتزل النساء لذكرى امرأة!!..
- قد رأيتُ رجالاً فعلوها.. ولكن لا علينا..
- أأنت منفعلةٌ حقاً لأجل سارة؟!.. أم أنك...

اصطادتني بذكاء، مع أني لستُ فريسةً من النوع السهل..

- تحبينه!!..
- مجنونةٌ أنتِ.. لا يمكن أن أحب رجلاً مثله..
- حسنٌ.. استمري بالإنكار.. لتؤكدي شكوكي.. هيا.. أنكري!!..
- ميسا.. مصطفى ليس حبيبي..
- إذاً لم تتمنّعين مع عماد؟!..
- عدنا للبداية.. قلت لك.. عماد مجرد صديق..
- تحبينه يا غادة.. عيناك تفضحان كل شيء.. أنتِ تحبين مصطفى..

كانتْ باكتشافها العظيم سعيدة.. رغم أن جوهر حديثنا هو مصطفى.. الرجل الذي من المفترض أنها مغرمةٌ به.. لكنها في الحقيقة ما كانت تحبه.. كل ما في الأمر أنه جذبها.. فمنحته جسدها!!.. كأي رجلٍ مرَّ قبله وسيمرُّ بعده..

******

في الصباح التالي.. استيقظتُ على حركةٍ غريبةٍ في المنزل..

ظلَّ مختفياً لأيامٍ بين عمله ولقاءاته بميسا.. حتى صار حضوره مفاجأةً غريبة..

- أيقظتكِ باكراً اليوم.. الحقيقة أنني تقصّدتُ إصدار بعض الأصوات في المطبخ لتستيقظي..
- صرتَ تغيب كثيراً يا مصطفى.. ألا تشتاق لألما؟!..
- أشتاق لألما.. ولخالة ألما.. ما هذه الألوان الجميلة؟!.. قميصٌ جديد!!..
- نعم.. اشتريته بالصدفة..
- غريب!!.. ليس من عادتك شراء هكذا ألوان؟!.. أم هو ذوق عماد؟..
- هل أخبرك؟!..
- أخبرني ماذا بالضبط؟!..
- لا شيء مهم.. تجولتُ معه قليلاً في المدينة.. زرنا معرضاً.. وتناولنا العشاء..
- ولِمَ أنتِ مرتبكة؟!.. لا مانع لديّ أن تخرجي معه.. أو مع غيره.. هذه حياتكِ يا غادة.. وأنت حرة في كل تصرفاتك.. يسعدني أن أراك سعيدة، وغير مُحتجزة بسببي أو بسبب ابنتي..
- قد صارت ابنتي أيضاً..
- بالطبع.. وستظل كذلك.. لكن هذا لا يعني أن تهدري عمركِ لأجلها..
- أنا لا أفهم.. إلامَ تلمح بحديثك؟.. عماد وأنا مجرد أصدقاء.. ولا وقت عندي لتفاهاتٍ أخرى..
- كما تشائين.. بالمناسبة قد فرّغتُ جدولي اليوم لنخرج سوياً.. أنا وأنتِ وألما.. الجو لطيف في الخارج.. وقد اشتقتُ إليكما حقاً..

فرحتُ بشاعريته، ووددتُ لو استطاع أن يُكثر منها.. لكن حياتي معه أكسبتني خبرةً بمزاجيته اللحظية.. هو يومٌ واحد.. وعليَّ الاستمتاع بقربه،

دون تمنِّي المزيد..

فكرتُ وأنا أتحضّر للخروج.. بمحادثة عماد، ومعاتبته على ما قاله لمصطفى.. ثم تراجعت.. كنتُ أُمثل دور الصديقة معه.. والصديقة لا تخجل من ممارساتها، ولا تمانع البوح بتلك التفاصيل..

كان من الأفضل للجميع.. أن تظلَّ الأمور على حالها.. أنا في حبي السري.. وميسا في نزواتها العبثية.. وعماد في انخداعه بصداقتي.. ومصطفى في كل الغموض الملتف حوله..

وظللنا جميعاً نتصرف كما يرمي مزاجنا.. وللقلوب فينا شؤونٌ أخرى!!..

******

دمشق / أغسطس - 2008

عادة القهوة.. قد تتباين من بيت لآخر.. لكن احتساءها دون مناخٍ خاص يُفقدها اللذة..

والقهوة عند عادل.. معيار يومه.. من الرشفة الأولى، يحكم عليه إن كان حسناً أو نحساً.. ويجب أن تُغلى في عرفه مرتين، وتُسكب في فناجين خزفية من إرث جدته لأمه.. وتُقدم في طبقٍ نحاسيٍّ واسع فيه كأس ماءٍ بارد وحفنة فلٍّ أو ياسمين غضة تسبح في كأس آخر.. فلئن حضرت القهوة.. حضر الصباح عنده!!.. وصفا ذهنه لصوت فيروز.. وترانيم الرحابنة.. وجريدة «الشرق الأوسط».. وسيجارته الأولى..

قمتُ صباح ذاك اليوم من سريري باكراً.. خرجتُ إلى حديقة منزلنا الهادئ في الغوطة.. فقصدتُ شجيرة ياسمين فتية، قطفتُ منها غصناً بهياً، جمعتُ وروده، وبدأتُ إعداد القهوة..

عامان أو أكثر منعاني من رؤية عادل.. كنتُ كلما رغبتُ القدوم إليه، وجدته قد خطط لسفرٍ أو غرق في عمل.. لا شك أن موت سارة.. صعّب الأمر عليه.. فرغم صغر سنها، كانت جديرةً بثقته في كثير من الصفقات..

فاحتْ رائحة البن، والذكريات..

منذ وصولي دمشق قبل أيامٍ مع طفلتي، انتظرتُ وعد مصطفى بصبرٍ ضئيل.. كنتُ في شقته الصغيرة مشغولةٍ بترتيبات السفر الطارئ الذي صار جزءاً من حياتنا معه.. أوضب بعض الثياب ولعب ألما على عجالة كيلا نفوت موعد الرحلة، حين اقترب لحظةً مني، وهمس في أذني..» انتظري مفاجأتي لكِ في دمشق».

ودّعنا ليلتها في مطار «هوبكنز» بفائض الحزن ككل مرة.. بكى جسده فراقنا حركاتٍ من الأسى.. كأنما هو الفراق الأخير.. وعلى متن الطائرة نامت صغيرتي حاضنةً دميتها.. بينما ظللتُ – أنا– أردد على مسامعي بصوتٍ واهٍ..

«انتظري مفاجأتي لك في دمشق».. «انتظري مفاجأتي لك في دمشق».. «انتظري.. مفاجأتي.. دمشق..».

ثلاث مفرداتٍ أدمنتُ عمري عليها.. فما خططتَ لي يا رجل المفاجآت!!..

كلّمتُه حين وصلنا.. وكلّمني بعد يومٍ يطمئنني عن وصوله مطار «يانجون» في «بورما».. أخبرني أنه التقى بالرجل الذي سيوصله وفريقه إلى «إيراوادي» المنكوبة جنوباً.. كان حماسه محسوساً لروحي.. فهو في أكثر

البقاع دماراً يتسلق ذروة الانتصار.. قد خطط وزملاؤه لهذي الرحلة أياماً طويلة مذ وصلهم خبر «إعصار نرجس» الذي أودى بحياة ما فاق الثمانين ألف قتيلاً وشرد ملايين البورميين في شتى البلاد.. تخوفتُ من ذهابه هذه المرة.. كنتُ قد قرأتُ في الجريدة، أن الحكومة العسكرية في بورما متشددةٌ تجاه قبول المساعدات.. طلبتُ منه علناً ألا يذهب.. فالتهب في وجهي صارخاً..

«ملايين الناس هناك يتضرعون لقمة طعام أو جرعة دواء وأنتِ جالسةٌ في الدفء على كرسيكِ تطلبين مني بكل برودٍ عدم المساعدة!!».

في نظره، كنتُ مجرمةً بلا رحمة، أعيش في معزلٍ عن الإنسانية.. لكنني في الحقيقة كنت خائفةً عليه.. نعم.. هو عندي أهم من الإنسانية جمعاء.. وذهب رغم خوفي، ليزيدني شغفاً به، ويتركني معلقةً في دمشق، بانتظار مفاجأته!!..

- صباحك ياسمين..
- صباح النور بابا..
- لم تنسِ ما أحب..
- كيف أنسى؟!.. لبعض الناس عاداتٌ جميلة.. وأجمل ما فيهم أنهم يحتفظون بها..

رشف قهوته مبتسماً.. وغاص في أخبار جريدته مستبشراً بصباحه.. غنتْ فيروز ذاك الصفاء..

«كان الوداع ابتساماتٍ مبللةً.. بالدمع حيناً وبالتذكار أحياناً..
حتى الهدايا وكانت كل ثروتنا.. يوم الوداع نسيناها هدايانا..».

- الله عليكِ يا ست!!..

طوى عادل جريدته.. ودخن بانتشاء..

كان قد بادرني ديسمبر الفائت، دعواه لحضور مسرحيتها «صح النوم»، بعد غيابها عن خشبات مسارح دمشق لمدةٍ طافت العشرين عاماً.. هاتفني يخبرني أنه حجز تذكرتين في الصف الأول، وأنه توّاق لصحبتي وتدليلي في حضرة فيروز.. لكنني قطعتُ عليه درب المُنى باعتذارٍ عن الحضور..

سألته فور إطرائه على الترنيمة، ما تمنى أن يُسأل..

- لم تخبرني؟!.. كيف كان الحفل في ديسمبر؟؟..
- فاتك يا غادة.. ليلةٌ من العمر لا أستطيع وصفها!!..

سرح قليلاً.. ثم قال:

- حين لم تأتِ اصطحبتُ وشاح أمكِ معي إلى دار الأوبرا.. وضعته

على الكرسي الفارغ جواري.. رفيقاً أحلى من كل النساء.. كان في القاعة أكثر من ألف قلبٍ ينتظر صعودها المسرح.. أو نزولها من السماء.. كان بين الحضور فاروق الشرع، بعض الوزراء، فنانون كثر، ودبلوماسيون عرب وأجانب.. والكل تطلع إلى الستارة المسدلة بذات اللهفة.. آه يا زمن.. ذات المسرحية حضرتها مع عمتك سلمى وزوجها أحمد مطلع السبعينيات، كانا مخطوبين آنذاك ولزم عليَّ مرافقتهما أينما ذهبا.. لكن هذا العرض كان أجمل.. فطيف صاحبتي أجمل.. وحضور فيروز أجمل.. كجوهرةً يزيدها العمر بريقاً وأجمل.. من على يسار خشبة المسرح، أطلت علينا «نرجس» بثوبها الذهبي، متداريةً بمظلةٍ كبيرة وظهرها مُدارٌ لنا.. لم أصفق لها.. كنتُ مأخوذاً بها.. أميرة من الزمن الجميل، تُحرك بصوتها راكد أيامي.. لتذكرني كم أحببتُ أمك في تلك الصباحات الفيروزية العذبة!!..

أدمعتْ عينه.. فهيّجني الحنين.. لكنه أكمل..

- ربما كانت لتفضل العودة إلى إسرائيل، كباقي أبناء ديانتها.. لكنها لم تفعل.. فضلت الموت على اتباعِ رغبتها.. هكذا هو الحب!!.. أن تختار بقاءك رغم شقائك!!..

عاد إلى جريدته.. بعدما أثار غيظي وأشعل ندمي.. ندمتُ لأنني لم أمزق الرسالة قبل قراءتها.. فجعلتُ - لغبائي - هذا الرجل الحزين يحزن أكثر..

كانت قد بدأت فيروز قصيدةً أخرى..

«يا ريت منون مديتون إيدايّ وسرقتك.. إيه إيه.. لأنك إلون.. رجعتون إيدايّ وتركتك حبيبي!!..».

تلك الأغنية الرصاصة التي أردتني قتيلة حبه في بيروت.. لكأنما كتبها «جوزيف حرب» ولحنها «فيلمون وهبة» في وصفي..

تلك الليلة المجازفة.. عبرتُها إلى بيروت أنويه انتقاماً فكان انتحاراً.. وحقاً نحرتُ بقية عمري في رجائه المؤلم كجراحةٍ طويلةٍ دون تخدير.. بكيتُ صباحها ألم دور «البديلة» الذي مارسته مراراً ولم أعتد عليه، فما زال يوجعني..

بردتْ قهوتي.. ولم أشربها.. كانت ألما قد استيقظت.. وقامت من سريرها لتكمل غفوتها في حضني.. إبهامها في فمها، ورجلها اليمنى ملتفةٌ على اليسرى.. كجنينٍ متكوّرٍ على نفسه..

نظر إلينا عادل من فوق نظارة القراءة..

- تشبهك أكثر من سارة..

- لا.. هي أجمل مني بكثير..

- والله تشبهك!!.. هي تشبه أباها، وأبوها يشبه أمه، وأنا وأمه نتشابه، وأنت تشبهينني..

- هههههه..

- أها.. هكذا من الصباح.. اضحكي يا ابنتي.. ليس ثمة ما يُنسي الهم كالضحك..

«مدام غادة.. ورودٌ لك..».

ورود؟!.. ولي أنا؟!.. وهنا في دمشق؟!.. دنتْ بتول بباقة الورود الفاتنة.. وضعتها على الطاولة أمامي بحرص..

جنةٌ من الأوركيد المخملي الأبيض بين بتلاتها رسالة مطوية.. نهضت «ألما» إليها تشمها.. بينما خطفتُ الرسالة وركضتُ إلى غرفتي فرِحَةً خجلة..

«انتظري مفاجأتي لك في دمشق..» رددتها بهمسٍ إلى أن وصلتُ الغرفة.. قفلتُ الباب على نفسي.. وارتميتُ على السرير.. هو هكذا القلب في لحظات الوله.. ينبض عن عمره كله..

كتب لي:

«جئت إليكِ هذه المرة.. لا إلى دمشق.. فأنت مُنيتي من بقية العمر يا غادة.. وأنت فوح ياسمينها وصفو عليلها.. ارتدي أجمل أثوابك لأجلي.. تجمّلي.. تعطري.. وتسللي من الباب الخلفي للمنزل.. سأنتظرك لأصحبك إلى مكان تحبينه لتحبيني فيه..».

عدتُ إليهما بسجيّةٍ أخرى، تليق بوقع المفاجأة.. كانا بانتظاري.. صغيرتي وجدها.. يلاعبها كما فعل معنا في صغرنا.. مِلتُ على كتفه.. قلتُ له:

- الورود منه..

تبسّم ورد لي:

- علمتُ ذلك.. حدّثني بالأمس يستأذنني الحضور.. ولذا سأعود مع ألما إلى دمشق.. ولربما نام هناك حتى الغد.. سنأخذ بتول معنا، لتعينني على شقاوتها..

كان يعلم بحضوره.. ويعلم أنه لا يريد من دمشق هذه المرة غيري.. لذا قرر شأن الرحلة العجول مع حفيدته.. وخلال أقل من ساعة غادرا.. كنتُ أنا خلال ساعة التجهيز الأخيرة، قد تسللتُ عشرات المرات بعيداً عنهما، لأعيد على قلبي سطور الرسالة.. فحروفها المكتوبة لي، جعلتني الأسعد في دمشق نهارها..

وشغلتني تفاصيل الأنوثة كما لم يحدث معي مرة!!..

إنه موعدي الأول معه كحبيبة.. وعليَّ صقل المرأة التي تعرجت

ملامحها فيَّ حتى فقدت ملاستها..

عليَّ أن أصير إلى ما يشتهيني.. أنثاه الجميلة العطرة المسكوبة في ثوبٍ يزيدها افتتاناً.. لطالما عانيتُ مشكلةٌ مع مسألة الأثواب هذه.. فكل فساتيني عاديَّة المظهر.. ارتأيت لنفسي.. ليس ثمة ما يليق بالحلم الليلة.. إلا فستان «أريللا» الأخضر.. المحفوظ في علبته لأعوام أسفل خزانتي.. كان الناجي الأوحد من محرقة الأشواق التي أشعلها عادل قبل أعوام لينسف ما بقي من ذكرياتها في حياتنا.. ولكثرة ما سمعتُ عن جمالها فيه.. خبأته عندي سراً عن الجميع..

أحبها حين اندلاع الحنين، ذاكرةٍ من عطرٍ وياسمين.. رائعة الحس كانت.. أنيقة الحديث.. ساحرة المبسم.. أسابق خلفها أطيافاً من التمني.. أغالب حزني.. فكل دمعي لا يرتقي لضحكة منها.. ومهما نأتْ تظل على أقل تقدير، أول أسباب السعادة..

بدوتُ في ثوبها الأملس القصير، مكشوف الرقبة والكتفين.. أشبهها!!.. قد أورثتني قدَّها ربما.. فهو عليَّ كما وصفوه عليها.. لكنها لا شك كانت فيه أحلى..

«سيمرض بي إذ يراني اليوم.. كما حدث لعادل إذ رآها.. تعويذة من الحرير الأخضر.. تردي من نشاء صريع هوانا..».

أتممتُ زينتي.. وجلستُ على جمر انتظاري أتحرّق مأتاه..

على الأريكة جانبي مجموعةٌ شعرية عنوانها «لا تعتذر عمّا فعلت» لمُفضلي محمود درويش.. لا زلتُ في حدادي عليه من أسبوعٍ مضى.. بكيته كمن خسر وطنه، حين نزع الأطباء أجهزة الإنعاش عنه في «مركز تكساس» في هيوستن بناءً على توصيته قبيل إجراء عملية القلب المفتوح.. ليعلن الرئيس الفلسطيني محمود عباس حداداً فلسطينياً عليه ثلاثة أيام.. كنت قد قرأتُ شعره آلاف المرات والتقيته مرة واحدة هنا في دمشق قبل أربعة أعوامٍ في أمسيةٍ دافئةٍ كشعره، تحمّلتُ فيها ضجيج الحضور وزحامهم في مدينة الجلاء للتمتع بحضوره الطاغي.. رأيته أطول مما تصورت، وأجمل وجهاً.. يبتسم فتبتسم في وجهه غمازتين رائعتين.. ويعبس فتجحظ عيناه الفاتحتان من خلف النظارة الدائرية الكبيرة.. كنتُ كببغاءٍ أعيد كلماته بذات الرنة..

حاصرَ حواسي كلها بقصيدته الرائعة «حالة حصار».

«قُربَ بساتينَ مقطوعةِ الظل

نفعلُ ما يفعلُ السجناءُ،

وما يفعلُ العاطلونَ عن العمل
نربِّي الأملْ..».
نعم.. نربّيه يا درويش، ليخذلنا!!.. فهو أكثر ربائبنا دلالاً.. وأسرعهم عقوقاً!!..
لكنك لن تصدق يا غائب يا حاضر.. أن أملي في حبه هذه المرة لن يخيب.. فأنا على موعدٍ معه قريب..
للمرة التاسعة عشر قطعتُ انتظاري.. لأتأمّل صورتي في المرآة.. أنا التي لا تعنيها المظاهر.. شغلني مظهري ذاك اليوم بهستيرية.. لا شك أن حبَّ الرجل للمرأة يغدو أصدق إذا كانت المرأة جميلة.. فجمال المرأة يفسر كل شيء في عرفنا.. زواجها.. نجاحها.. حضورها.. ويغفر لها عيوبها..
كنتُ قد بدأتُ أحبه أكثر إذ كتب لي في رسالته «تجمّلي».. فلطالما ما كان مهتماً بجمالي، ولطالما تمنيتُ أن أكون جميلته.. أظن أننا حين نودّ تغيير نظرتنا لشخصٍ اعتدناه.. نكون في أشد الرغبة لتغيير صفته.. ما دام يرغب برؤيتي مختلفة.. إذاً.. قد أصبح من اليوم حبيبته لا صديقته.. تبسّمتُ لمرآتي..
ثم سمعتُ حركةً في الحديقة الخلفية للمنزل.. هرولتُ متعجلة.. جاء ربما.. سأحضنه بلا تردد، وأقبّله دون تحفظ.. سأطلب منه أن يحملني ويلف بي في الهواء.. سأهرب معه إلى حيث يريد.. سأراهق معه.. سألعب معه.. سأرقص معه.. سأكتشف سرير الحب معه..
كان على بعد خطواتٍ قليلة.. بانتظاري.. رشيقٌ أبيضٌ كما أردته.. طويل الذيل.. وبلطخةٍ سوداء على عينه اليسرى.. مربوط بلجامٍ خفيف إلى عنق شجرة.. اقتربتُ منه ودموعي تُسعدني.. حصان الحلم الذي اشتهيتُ امتلاكه.. فارسه اشتراه لي.. واختبأ في مكان ما هنا.. ليراقب فرحتي بمفاجأته..
وضعتُ يدي على رأسه.. ألِفني من اللمسة الأولى.. كأنه كان لي منذ دهور.. كأننا خُلقنا في هذا الكون لنكون متآلفين..
كان- هو- قد اقترب من ورائي.. عصب عينيَّ بشريطة.. وهمس «لا تخافي».. ثم حملني إلى ظهر الحصان.. وامتطاه معي.. في حضنه الدافئ وبين ذراعيه الصلبتين.. شعرتُ أنني في بلاد الغيم.. مشاعري.. طاقتي.. أحلامي.. فرحتي.. على علوٍّ لم أخطف لمثله يوماً..
«هذا الحصان لك.. ومثله أنا لو قبلتِ.. امضي بنا إلى أبعد أجمة.. واحترفي ترويضنا كيفما شئتِ..».

شهقتُ من العلو المرتفع حين سمعتُ صوته!!.. هو ليس مصطفى!!..

بدد يقينُ الصوت أملي.. وفي مصيدة حلمي وقعتُ فريسةً سهلة، لرجلٍ آخر، أحسبه من صوته عماد..

فككتُ الشريطة لأراه.. كان حقاً عماد!!.. هنا في دمشق.. يمتطي الحصان معي على سجية الغزل.. وعلى قلبي ضحكتْ أفكاري جميعها ساخرةً من سذاجته.. قد كان الأكثر غباءً في هذه المسرحية.. إذ سمح لعاطفةٍ حمقاء أن تغرر به وتقنعه بزيف الأمل..

- أنزلني أرجوك.. قد خفت منه..
- قلتِ لي إن حصاناً كهذا هو حلمك.. أتخافين من الحلم؟!..
- ربما عليَّ أن أعتاد عليه..
- لكأنك لا تحبين المفاجآت؟!..
- لا أطيقها.. أنزلني أرجوك..

دخلتُ المنزل بفلول الخيبة والدهشة.. وفي أقرب حمّامٍ حبستُ نفسي كيلا يتبعني عماد.. أغمضتُ عينيَّ أريد ستر دموعي المتسارعة متأثرةً بالحزن الذي أثَّ وتعاظم في روحي كالخرافة.. فأحسستُ بغثيانٍ حمضيٍّ شديد.. وسرعان ما استدررتُ قيئاً ساخناً سال على عنقي وصدري وفستانها الأخضر.. استرقتُ نظرة رثاءٍ عليه.. على وجهي الملون.. وشعري المصفف.. كنتُ أجمل مما ينبغي.. وهذا الفستان كشف من مفاتني أمام عماد، ما وجب عليَّ حفظها.. كنتُ محمومةً بالخجل.. مكسوّةً بالفشل.. مترنحةً بتخاريف الأمل.. غارقةً بأوهامه..

مضى عليَّ بعض الوقت ولم أخرج إليه.. خفتُ أن يكون على عتبة الباب ينتظرني، وأنا ملأى بعوارض الخذلان، متسخة بعصاراتي، ودموعي تفيض.. حاولتُ لملمة ما أمكنني من الحطام الذي كنتُ فيه، وخرجتُ من عتمتي خافضة الرأس مكسورة الوجدان.. لا أحد بانتظاري.. صعدتُ إلى غرفتي.. ارتديتُ حلّتي القديمة.. جمعتُ شعري بشريطة، ووضعتُ نظارتي الطبية لأستر عينيَّ المتورمتين.. فرأيته من شباك الغرفة.. ما زال ينتظر مكانه يربت على ظهر الحصان ويتلفت بين الفينة والفينة بحثاً عني.. ربما لو حدث معي ما حدث معه، لمضيتُ دون انتظار.. لكنه ما فقد الرجاء بعودتي..

«ما جاء بكَ يا عماد؟!.. هل أنت مرسل الورود، وكاتب الرسالة.. هل أنت صاحب الموعد الرقيق؟!..».

كنتُ مضطرةً للنزول إليه، مجاراةً لرقي تصرفه..

نظر إليّ وأنا مقبلةٌ عليه بفتور.. فابتسم..

- لم تسعدي بقدومي.. لكنني سعيدٌ برؤيتك..
- ليس هكذا.. لكن حضورك فاجأني.. تفضل لأعد لك القهوة..

أخرج من جيبه تذكرتين وعلبة.. ثم أخرج رسالةً مختومة.. لكأنه جيب العجائب.. كلما مدَّ يده إليه.. خرج بجديد..

- قد حجزتُ تذكرتين في حفلٍ موسيقيٍّ الليلة، في قلعة دمشق.. وددتُ لو خطفتك إلى هناك بطلّتك الإغريقية تلك.. كنت أحلم بقضاء أمسيةٍ في مراقبتك وأنت هائمةٌ بعزف الرحباني.. خُدعتُ ربما بذكائي.. وغششتني بسهولتك..

غرز في روحي طعنة..

دمشقُ ذاك العام، استردتْ هويتها الأبدية.. كانت عاصمة الثقافة.. والكل تنافس في الحضور إليها.. حتى الذين لم يفعلوا من قبل- كزياد الرحباني- أرادوا تكريمها على طريقتهم، وخَطْفِ قبسٍ من ألقها ليزيدهم تفرداً..

تقتُ دوماً لحضور حفلٍ حيٍّ لزياد.. وما أفتنُ من كونه هنا في دمشق!!.. لكن الشركاء الخطأ يطفئون أغلى رغباتنا!!.. وشريكي في ليلتي، آخر من أرغب!!.. ثم إنه فضح مفاجآته كلها.. ربما خاف من ردات فعلٍ أعنف، واستدرك باقي كرامته..

رائحة البن نشوةٌ للمزاج.. فكرةٌ لا بأس بها أن تُعدَّ القهوة بعد هزيمةٍ مخزية..

تطفلَّ على حوض النباتات الصغير المستند إلى شباك المطبخ.. كنتُ قد زرعتُ فيه بعض الريحان والنعنع والزعتر البري والميرمية.. كما في منزلي في كليفلاند.. لا أقاوم فوح الأعشاب في المنزل وإضافتها إلى فنجان الشاي أو الليمونادة الطازجة ولشتى أنواع السلطات والسندويتشات..

- حتى هنا وأنت زائرة.. لك لمستك..
- هي عادةٌ عندي ليس أكثر..
- أين ألما.. لا أسمع حسها.. يبدو أن لا أحد هنا سوانا.. صحيح؟!..
- نعم.. في الحقيقة..
- كنتِ تنتظرين ضيفاً آخر..
- لا أبداً.. لم يعد لي معارف يزورونني هنا..
- لكنك تجهّزتِ لاستقبال أحدهم.. لا أظنه أنا..
- كل ما في الأمر أني لا أحب ارتداء الأثواب ووضع الزينة.. لا

أطيق تكلفي أكثر من بضع دقائق.. ثم أرتدُّ لطبيعتي.. تفضل القهوة جاهزة..

- سلمت يداكِ.. وأنتِ تفضلي.. هذه الرسالة لك.. حقيقة الأمر أني لم أخبر أحداً بقدومي إلا مصطفى.. تعلمين.. هو أكثر من صديقي.. كتب لك هذه وطلب مني إعطاءك إياها.. ثم كلّم والدك يخبره عني..

ناولني الظرف المغلق.. فشعرتُ به ندىً يتطاير على ذبولي، ينعش النسغ الميت داخلي، ويعيد اللون إلى وجهي.. على الأقل، كتب لي شيئاً.. على الأقل، ثمة مفاجأةٌ منه.. ربما ليس ذنب عماد أن جاء يصارحني بحبه هنا.. هي مشكلة توقيت.. توقيتٍ سيئ أربكني فشردتُ وضيّعتُ الأمل..

قرّبتُ الرسالة من وجهي.. رائحته عالقةٌ بها.. رائحة مزيج التبغ والعطر من أطراف أصابعه حين كتبها..

ابتسمتُ خفيةً عن عماد مستعينةً بطرف الرسالة.. ثم قلتُ له..

- نمضي؟؟..
- إلى أين..
- هل فوّتنا موعد الحفل المنتظر؟!..
- لا.. ليس بعد..
- إذاً!!..
- لن تقرئيها..

أشار إلى الرسالة..

- ليس الآن.. فلدي أنت.. لن تشغلني عنك رسالة..

أمسكته من كفه.. فتحسستُ علبةً صغيرة.. كان قد أخرجها من جيبه قبل قليل..

- لم تخبرني؟!.. ما في العلبة؟!..
- ما دمنا ذاهبين.. أخبرك هناك..

دسّها في جيبه من جديد.. وخرجنا..

كل دمشق كانت بانتظاره.. حتى قمرها المكتمل محتفلٌ بحضوره.. كل هؤلاء الدمشقيّون يحبونك يا زياد.. كبروا وما زالوا يكبرون على موسيقاك.. غيرتَ مزاجنا الموسيقيَّ وعدلته على وقع نوتاتك.. دمغتنا ككل أهل الشام بثقافة مختلفة.. ورفعت سقف الرقي السمعي حتى صرنا بغير أشباهك لا نهيم..

كنا قد وصلنا قبل موعد الحفل، لكننا متأخران!!.. فسيول الناس غدقت من كل جانب.. يرددون بعض قصائده الشعبية المحببة، وصورته

معلقةٌ على قمصانهم أو مرفوعةٌ على أعلامٍ صغيرة..

ونفعنا التحاذق بالتسلل من مدخل الصحفيين، لنظفر ببعض القرب من المسرح..

على البطاقة رقم لمقعد.. أحدهم جلس عليه.. رجلٌ من جيل الرحابنة، جاء ينعش ذاكرته بأفضلهم.. سألته فقام لي واعتذر بأن أحدهم جلس مكانه، فرفضت ذهابه.. حقاً أردته أن يبقى معنا.. لا ضير من تناوب الجلوس مع عماد على الكرسي الآخر.. فهذا رجلٌ يستحق.. أنيقٌ، ودودٌ، مثقف المظهر.. نعم.. ليس عليك أن تتحدث لتبرز ثقافتك.. فالمثقفون ينضحون سلوكياتٍ تثبتهم.. كما كانت أمي تقول..

«ربائب دمشق مثقفون بالفطرة.. أناسٌ يتنفسون الياسمين ويحتسون القهوة وينضجون على فن الحديث والابتسامة ليتقنوا تجارتهم.. تخالطهم فتحب لكنتهم، عباراتهم، ضيافتهم، طبائعهم ومزيج السحر فيهم.. ذاك الذي اكتسبوه من دمشق، لا من دياناتهم..».

كان والبيانو أمامه.. ثورةً تتفجر في قلعة دمشق!!.. لا يكاد ينبس بعبارةٍ حتى يوقد الجمهور بالهتاف والتصفيق..

غنّى بصوته الرخيم..

«كل المصاري اللي مضبوبة.. اللي ما بتنعد وما بتنقاس..

أصلاً من جياب الناس مسحوبة.. ولازم ترجع ع جياب الناس!!..».

«يسلم تمّك!!..» همسها الرجل الغريب جانبي متأثراً، وعروق العمر البارزة على يديه الخشنتين تصيح أنه كدَّ عمراً لقاء حفنة من مال غير كافٍ.. ولهذا انفعل لشعر زياد..

حتى نحن أبناء الترف.. أنا.. عماد.. وغيرنا كثيرون هنا.. تأثرنا بما يُغنّى.. لكن شرخاً واسعاً فصل بين تأثرنا واحتراقهم.. فنحن بالكاد ننزعج من دخان الحريق.. أمّا هم، فوقوده!!..

ذاب كلّي في حضوره ذاك المساء.. وددتُ الصعود إلى مسرحه.. ولمس آلات الأوركسترا الكلاسيكية والمعاصرة.. تمنيتُ لو كنتُ قريبة أكثر.. لأشم رائحته وأحفظها.. فالصور التي من غير رائحة، سريعة النسيان والعطب!!..

شملنا بنظرة واحدة ثم قال ببحته المحببة:

«جينا نطربكم أطربتونا.. أنا اللي شفتو اليوم ما شفتو بحياتي..».

هذا ما استحقه جمهور تلك الأمسية!!..

كانت برفقته شابة أومأ لها فتقدمت بفستانها الأحمر القصير.. سمعتُ الصف ورائي يناديها «رشا رزق».. غنت على عزفه أغنيتي المفضلة..

«معلومات أكيدة ومش أكيدة».. فبكيتُ حنيناً وتأثراً..

أخاف أنني ما زلتُ في حب مصطفى ملبوسةً بالوهم.. أخاف أن أكون كامرأة الأغنية أدّعي أننا بخير ونحن لسنا كذلك.. أخاف أن يوصلني معه إلى شفير الهاوية.. فأنتحر لأجله انتحاري الأخير.. أخاف أن أشتهي النسيان فلا أنسى.. القسوة فلا أقسو.. الرحيل فأتذلل للبقاء..

نظرتُ إلى عماد..

مخيفٌ كيف يأتي أحدهم بتحقيق الأماني، فنتنكّر من أمانينا لنرفضه!!.. أما كانت هذه مُنيتي دوماً!!.. مفاجآتٌ آسرةٌ من رجلٍ يحبني؟!..أكان عليه أن ينتزع لي سور الصين العظيم ويحضره في جيبه لأصدِّق مشاعره؟!...

يحبك يا غادة.. فما المشكلة؟!.. أكان عليه ألا يحبك لتحبيه؟!..

انسحب «الرحباني» من مسائنا بألقٍ فريد.. رجاه الحضور أن يبقى ويعزف المزيد.. لكنه تعوّد التمرد والتفرّد.. غاب وشركاؤه خلف جدران القلعة.. ثم بدأت الجموع بالتبدد من حيث جاؤوا.. فبقيتُ وعماد، ننتظر مسلكاً يفرغ لنا..

- أنت أجمل ما في ليلتي.. ليتني أبقيك سعيدة هكذا طول العمر..

- السعادة الدائمة مملة..

مدَّ ذراعه من خلفي، احتضنني وقربني إليه.. وأهداني العلبة المخبأة في جيبه.. حاولت فتحها، فمنعني.. قال لي..

- ليس المهم أن تفتحيها.. المهم أن تقبليها..

حتى وهو ليس حبيبي، أحب تودده الرقيق مني..

كنتُ قد استقرأت ما في العلبة.. وجهدتُ كعادتي لنفي الفكرة.. لكن شكل العلبة ظلَّ يلح على توقعاتي طوال درب العودة.. هو خاتم زواج.. لا مجال للشك.. ولكن كيف؟!.. كيف وهو يعلم أني متزوجة؟!.. ربما أخبره مصطفى أن زواجنا على ورق.. ربما توقع أني بانتظار شابٍ مثله لأنقلب على فتور زواجي الشكلي.. ثمَّ لم لا يفعلها وقد زرتُ منزله وقبلتُ غزله ورضختُ لمفاجآته؟!.. لم عليه أن يفسّر هرعي منه رفضاً لا خجلاً؟!..

قد أحبني.. فلم أستنكر أطياف توهمه؟!.. أولسنا في الحب سُكارى مُترعون بالوهم!!..

- ألقاكِ غداً.. تصبحين على خير..

ودّعني أمام الحديقة.. ومضى.. فدخلتُ منزلي البارد..

في صمت المكان إلا من مخاوفي وصهيل حصاني.. كانت الأقدار

تنتظرني.. حبيسةً في علبة، ومكتوبةً على رسالة.. كرغبة الرجل الذي أحب.. والرجل الذي يحبني.. أنا فقط منعكسٌ لرغباتهم!!..

كانت ليلتي تلك.. ليلةٌ لتعرية الحقيقة.. كل التداري والمواربة التي احترفتُها لسنين، ما نفعتني تلك الليلة بشيء..

أمسكتُ برسالة مصطفى.. شممتُها قبل قراءتها.. وعجبتُ من نفسي.. ترى.. متى أفرط قلبي بحبه هكذا؟!.. متى تحوَّل من عشقه لرغبته ومن حيائه لجرأته؟!.. متى انقلب على صمت مشاعري واستباح انفلاتها هكذا؟!..

على سريري.. ارتميتُ من عبق الرسالة.. وبنات أفكاري تتزاحم في رأسي المتعب..

آهٍ يا مصطفى..

أي شيءٍ أدعى من السكون إليك وأنت غائب؟!.. وكيف لهذه الملاءة أن تصير جسدك.. ولهذه الوسادة التشبه بوجهك؟!.. كيف للأشواق أن تستحيل في لحظة العناق، قبلاً لا تتعب.. ولمساتٍ لا تنتهي؟!..

فتحتُ الورقة بقلق.. ثلاثة أسطرٍ فقط.. وخطٌ متلكئٌ أعرج..

كتب لي:

«غادة..

في بيروت.. وعدتك قبل أعوامٍ أن تظلي حرةً في زواجنا مهما حصل.. أشكرك لأنك عثرتِ على رجلٍ تحبينه، وسهّلتِ عليّ قرار انفصالنا.. فصدقيني صرتُ حين أراكِ أتوجّع من عذابات الضمير والعاطفة.. قد سلبتك الكثير يا صديقتي، وليس الوقت سلعةً تسترد.. فامضي ببقية العمر يا غادة.. واختبري الحب مع من يستحق..».

كان مع الرسالة ورقةٌ أخرى مطوية.. إشعار طلاقٍ رسمي من المحكمة الشرعية..

«مشاعر لا توصف». سمعتها في أحاديث كثيرة وثرثراتٍ عن الحب.. وضحكتُ على من اختلق الجملة أول مرة.. كيف حوّل قصوره الوصفي إلى عبارةٍ سهلة متداولة.. لكنها لفحتني، حمّى «المشاعر التي لا توصف»، فغبتُ عن الوعي وأنا مستيقظة..

خمسة أعوامٍ معه كالهواء.. خمسة أعوامٍ من المحاولات المتعسرة للفت نظره أو تنبيه رجولته.. خمسة أعوامٍ من المداعبات اللفظية، والتلميحات العطشى.. خمسة أعوامٍ نمتُ فيها على سريرٍ باردٍ في منزله، في غرفةٍ غير غرفته، بابها مغلقٌ وضوؤها خافت.. ما استطعتُ ليلةً اختراقها.. وظللتُ مثله هادئةً في عزلتي، أتصيَّد النوم في صفحات الكتب المملة، كيلا أصغي

لجسدي وأنزح إليه.. كل خطوةٍ في الرواق الفاصل بين غرفتينا كانت بألف ميلٍ من التردد والخجل..

ثم هذا ما حصل!!..

نعم.. قالها لي في بيروت.. لكن قلبي لم يصغِ.. ظنَّه يراوغ لأقبل به.. لكنه كان واضحاً في طلبه.. وحذراً من عدم التورط بحبي..

يالِ هذه المفاجأة المبهجة.. كم استحقتْ انتظاري!!..

«انتظري مفاجأتي في دمشق..».

أهكذا أستحق أن تفاجئني يا مصطفى!!.. أم صدّقتَ أنها مكافأتي على الأعوام الخمسة الضائعة معك، كتعويض بخسٍ لنهاية الخدمة!!.. ما هو الحزن ما لم يكن هذا؟!.. ما معنى التعاسة إن لم أكن أنا ليلتها؟!.. أنا عروس الخيانة.. خطيئة الغباء.. أنا كلُّ ما على الأرض من شقاء!!..

كان من الراجح لي وقتها.. وأد نفسي.. ففي المنزل الصامت، كنتُ كما اليتيمة بلا حضن أمٍ أو طبطبة أب.. وحيدةً بلا مواساة أختٍ أو وقفة أخ.. لا أملك رقم هاتفٍ لمصطفى فأتصل لأسبَّه.. ولا لعماد هنا فأسأله القدوم.. وليس لي أي صديق أو صديقة..

أحادث من؟!.. أشارك من؟!.. ما لي سوى خيط نجاةٍ واحد.. تلك العلبة المخملية المغلقة.. إن قبلتُ بما فيها.. خرجتُ من المعركة منتصرةً.. ولو بجسدٍ دامٍ، مخضَّب الطعنات..

كان في داخلها ما لم أتوقع.. ليلة خيبة التوقعات!!..

ذاك القرط الفيروزي الآخر.. المفقود يوم تعارفنا.. وورقةٌ كُتب عليها..

«حين لمحتك في السوق يومها.. عثرتك تتأملين واجهة براقة لحليٍّ مرصعةٍ بأحجار كريمة.. كنتِ أحلى من كل المجوهرات الأنيقة.. كنتِ رقيقة.. بالكاد تدوسين على الأرض وكأنك تطيرين.. قلتُ لقلبي.. ربما لو احتلنا عليها بحجرٍ فيروزيٍّ جميل، افتعلنا صدفة العمر.. اشتريتهُ بتلك النية.. همستُ لك: وقع منك.. ونصفه الآخر في جيبي.. فابتسمتِ وقلتِ لي: اعذرني لم ألحظ سقوطه.. عرفتُ حينها أنني لم أعثر عليك.. بل عثرنا على بعضنا يا غادة...... تزوجيني..».

******

كليفلاند / أغسطس - 2010

عجيبٌ ما يفعله الحزن بقلب امرأة!!..

يتلذذ بحرقه إلى فحم أسود.. ليبدع منه تحت وطأة الكبت والصمت ألماساً نقياً يسحر من يراه.. كما لو مرتْ عليه دهورٌ كثيرة في جوف بركانٍ خامل.. يصبح قلبها أكثر فتنة وأشد قساوة.. ولأنه لا ينبض.. فهو غير قابلٍ للاختناق مجدداً..

كنتُ على شرفتي أحيك وشاحاً سماويّ اللون لعماد، حين لمحتُ مصطفى خارجاً من منزله، ينتع حقيبة سفره، ويخطو تجاهي.. شارعٌ واحدٌ فصل بيتينا الجديدين عن بعض.. يزورني كلما اشتاق ابنته.. ولا أزوره البتة!!.. ولو كان الخيار لي، لما اخترت هذي الجيرة.. لكنه رغب إبقاء ألما معي.. ورغبتْ هي القرب من والدها.. وككل مرة.. لا مكان لصوتي في زخم الرغبات..

أسند حقيبته إلى مطلع السلم الصغير، وصعد الدرجات القليلة إلى الشرفة.. جلس على الأرجوحة جانبي وارتشف رشفة شاي فاترة من فنجاني..

- أعدُّ لك كوباً جديداً؟..
- لا.. لا بأس بهذا..
- إلى أين هذه المرة؟؟..
- ما زلتِ غير مهتمةٍ بما يجري خارج هذا الحي..
- بل لعلي غير مهتمة بما يجري خارج هذا المنزل..

أوقف تأرجحه بغضب..

- مئات آلاف المنازل في باكستان تهدمتْ.. وغمر الفيضان ملايين الفدانات من أكثر أرضيهم خصوبة.. جرف محاصيلهم وشردهم.. قتل الأطفال والنساء.. وعطب الرجال.. وحملات التبرع الفردية والجماعية تصدح في كل الصحف والمحطات.. وما زلتِ على جلستك تحولين خيوط الصوف التافهة إلى وشاحٍ رديءٍ لا يحتاجه رجلٌ يملك عشرات المعاطف..

«لمِ كل هذا الصراخ؟!..».

وصل عماد متأخراً من عمله، يحمل بعض الورود لي ولوح شوكولا لألما.. فرمقه مصطفى بازدراء.. ونهَره يقول:

- أنت أيضاً بتَّ تشبهها.. عالقٌ في رومنسياتك الغبية والعالم ينهار فوق رؤوسنا..
- ما حدث لكل هذه العصبية؟!..

- ما حدث يحدث كل يوم.. وفي كل مكان.. الناس تموت من الجوع والعطش، وتدفن تحت الخراب.. وأنتما في نعيم الحب تبذخان..

- آه.. ذاهبٌ إلى باكستان!!..

جاوبه عماد.. فنهضتُ من جلستي محتدة.. وقفتُ بينهما وصرختُ في وجه مصطفى..

- قد تبرع قبل يومين بنصف راتبه السنوي للمنكوبين في بنجاب.. وترك النصف ليصرفه علينا أنا وابنتك التي نسيتها هنا.. ذكّرني، فقد نسيت!!.. نسيتُ آخر مرة هديتها فيها كتاباً أو لعبة، أو حتى قطعة حلوى.. نسيت آخر مرة خرجت معها للغداء، لركوب الدراجة، أو لحضور السينما؟!.. هذا الرجل الذي تسبُّ بذخه في الحب.. يحب ابنتك أكثر منك، وتحبه هي أضعاف ما تحبك.. فامضِ إلى باكستان دون القبلة المصطنعة التي تنوي طبعها على جبينها.. هي لا تحتاجها.. ولا تحتاجك.. وإياك أن تدعي التعاطف في منزلي.. أنت لا تصلح أن تكون وصياً على طفلةٍ في السابعة لتكون وصياً على الإنسانية!!.. امضِ من هنا.. امضِ!!..

بلا جدال.. بلا صراخ.. بلا تلكؤٍ أو اعتذار.. ضمَّ حقيبته لخيبته.. حشر نفسه في سيارته الصغيرة.. ومضى..

عاقبتُ نفسي بحبسها في قبو المنزل أكثر من ساعة.. قد تعود عماد احترام انزوائي وتركي وحيدةً في هكذا لحظات.. جلستُ على كرسي قديمٍ مائل.. سحبت غطاء دراجته الهوائية.. ولففت جسمي به.. البرد النافذ إليّ، والنافذ مني، جمّدني.. غداً هو عيد ميلادي.. حتى هذا العيد تحوّل بعد موت سارة إلى ذكرى أليمة..

عشرون عاماً من الكدر المتكرر بعد ثمانية الطفولة المقتضبة.. هي مشيئة الحزن أن يلاصقني كظلٍ طوال حياتي.. وأن ينتهز أضعف الفرص في التفاقم من حولي..

نحن نكذب.. ونصدق ما نكذب.. ونختلق كذبةً جديدة مع كل مواجهة لنحمي كذبتنا الأولى.. هكذا.. حتى نحاط بأكاذيبٍ رغبناها ولم نرغبها.. ليصبح تذكر ما هو حقيقي.. أعسر من مواصلة الكذب..

كذبتُ عليه أول كذبة.. حين تصنّعت الفرح بزواجه من أختي.. ربما لو صدقته الشعور حينها.. لو أخبرته أن لا فرح في بُعد من نحب.. لكان احترم صدقي.. وانصرف عن معرفتي بعد موتها.. كذبتُ عليه فصدّقني.. واحترفتُ الكذب حتى بتُّ في مستنقع أوهامي مبللةً بكل هذا الألم..

فتح عماد الباب بهدوءٍ حاملاً مصباحه ودنا مني..

- أعتذر لو قطعتُ عليك خلوتك..
- ما الأمر؟!..
- مصطفى.. تعرض لحادثٍ على الطريق السريع.. عليَّ أن أذهب الآن، ولا أريد ترك ألما وحيدة في الأعلى..
- مات!!..
- لا تقولي هذا.. فهمتُ من المتصل أنهم أسعفوه إلى مستشفى قريبة.. لم أخض كثيراً في التفاصيل.. أرجوك انهضي واصعدي للأعلى.. سأكلمك حين أصل إليه.. أرجو أن يكون بخير.. قد خرج مهموماً من هنا بسببنا..

دخلتُ المنزل.. ونمتُ جوار طفلتي للصباح التالي..

لم يعد عماد.. ولم يتصل.. والغريب أن قلبي لم يجزع على غيابه ولا على ما أصاب مصطفى.. كان نومي سهلاً سريعاً.. كذلك استيقاظي.. إذ قفزت فوقي ألما جائعةً تريد حليبها.. تسلقتْ أكتافي حتى المطبخ.. فأعددت لها الحليب الدافئ.. وراقبتها وهي تشربه مثل قطةٍ مدللة بينما كنتُ أحضر لنفسي القهوة وبعض الخبز بالزبدة.. أنهينا فطورنا.. واستحمامنا.. دخلتْ هي إلى غرفة ألعابها تكمل حفل الزفاف الذي ابتدعته لدميتها المفضلة.. وخرجتُ أنا إلى الغرفة الزجاجية لتفقد ورودي وشتلاتي.. مرَّ بعض الوقت لم أشعر به وأنا منهمكة بالتقليم والسقاية.. حتى جاءتْ إلي ألما حاملة هاتفي.. أخبرتني أن رنينه أزعجها وهي جدٌّ مشغولة.. اعتذرتُ منها وقبّلتها قبل أن تركض للداخل.. ثم عاودتُ الاتصال بعماد..

- لم تتصلي لتسألي ما حلَّ بمصطفى؟!..
- وعدتني أن تتصل ولم تفعل.. فلم أشأ إرباكك أكثر بمكالماتي..
- أحقاً لستِ مهتمة؟!..
- أخبرني.. كيف هو الآن..
- جروحٌ ورضوضٌ كثيرة.. وكسرٌ في يده وقدمه اليسرى.. سيحتاج لعناية خاصة في الفترة المقبلة.. لذا أود إحضاره إلى منزلنا.. اهتمامك وقرب ألما منه.. سيسرّع من تعافيه..
- أها.. ما دمت قد قررت استضافته.. أحضر معه ممرضة!!..
- غادة.. ما بكِ حبيبتي؟!.. لم تتصرفين كالأطفال؟!.. لقد اختلفنا في النقاش معه وانقضى ذلك.. هو مصطفى في نهاية الأمر.. لن نخسره لبضع ترهاتٍ ساذجة.. حضِّري له غرفة في الطابق السفلي لن يتمكن من صعود الدرج.. سنعود بعد قليل..

كنتُ والهاتف على أذني، أفكر في أوراق الريحان المريضة في حوضي..

وجب قصها جميعاً، فتلك اليرقات الشفافة المعتاشة عليها، تركت أخاديدها البنية على كل الأسطح الخضراء الجميلة.. فشوهتها وأتلفتها.. قد وعدتني المزارعة الإيطالية التي باعتني بذور الريحان هذه الربيع الفائت، أنني لن أتذوق مثله ولا في أرقى مطاعم المدينة.. من المحزن أن ترى البذور الدقيقة تنتش في تربتك الخاصة.. لتمتد جذورها وتعلو سيقانها وتتفتح براعمها وتستطيل أوراقها.. ثم تأتي دودة تافهة فتترك بيضها على نبتتك المفضلة.. وتفضي لليرقات الناشئة مهمة إفسادها..

كنتُ وقد أنهيتُ مكالمتي.. أشرع بقص الورق المنقّب.. حتى إذ فرغت، بكيتُ على الشتلة الغضة التي تعرّت من زينتها!!.. أنا مثلها مريضةً بحبه.. ضعيفةٌ في عرائه.. كلما حاولتُ إنبات فرعٍ جديدٍ داخلي.. تطفلتْ عليه يرقات الحزن وقضمته بلا شفقة!!..

******

تحسّن كثيراً عن حاله حين جاء.. ما عادتْ جروحه تنزف، ولا كدماته توجع.. حتى ازرقاقها خف كثيراً.. لكن طبيبه أخبرنا أن الكسر في قدمه اليسرى يحتاج المزيد من الصبر ليشفى.. نقر عكّازه على أرضيتي الخشبية صار أضعف من ذي قبل.. قد بدأ استعادة توازنه وقوته..

مراقبته وأنا أعد العشاء.. صارت هوايتي المفضلة.. فغداً يعود إلى منزله، وأعود إلى هواياتي القديمة.. ولكن لابأس من تدليل نظراتي بملاحقته وهو مشغولٌ بمطالعة الأخبار على صفحات الإنترنت، والإنصات بين الفينة والفينة لخبرٍ عاجلٍ على «العربية».

كان عليَّ قبول اعتذاره وهو مترعٌ بالجروح والآلام.. نظر إليّ بحزنٍ يوم عاد به عماد إلى منزلنا.. وقال لي: .. «لو علمت أن إغضابكِ سيفعل بي هذا.. لودعتك بابتسامةٍ ومضيت.. سامحيني يا غادة..».

أجل.. ثقافة الاعتذار لا تعني أن نعتذر عن أخطائنا وحسب.. بل أن نقبل اعتذار الآخرين إذا أخطأوا..

كان قلبي قد غفر له.. لكن قساوته الأخيرة جنّبتني التمادي في القبول.. فاكتفيتُ بهز رأسي وتصنّع ابتسامةٍ باردة..

– رائحة العشاء شهية.. أظنك أعددتِ لنا شرائح السلمون بالأعشاب وحساء الذرة..

– صرتَ خبيراً بالروائح.. فائدةٌ جديدة من فوائد الجلوس في المنزل..

– بالمناسبة.. لم أنم ليلة أمس قبل تركيب القطعة الأخيرة من «البزل» الذي اشتريته لي.. أظننا بحاجةٍ لبروازٍ كبيرٍ يضم هذه اللوحة..

أبهرني جمالها.. حقاً أنت بارعةٌ بالاختيار.. «سفينة نوح» العالقة على رأس جبل وعشرات الحيوانات المتسلقة إليها والحائمة فوق سمائها.. ما يمكن أن يكون أشد روعةً من مشهدٍ كهذا لتحمل صعوبة تجميعه قطعة قطعة..

- غداً بعد التمرين الصباحي نذهب إلى «تارغت».. ونختار بروازاً كلاسيكياً يليق بها..

- قد وعدتك أن تكون لكِ بعد إكمالها.. ولكن اعذريني.. أظنني سأحتفظ بهذه.. أحببتها!!..

- أها.. إذاً ستركب الثانية لي.. لأضعها في غرفة الجلوس..

- وما موضوعها؟!..

- «آية صوفيا» في اسطنبول..

نظر إليّ وأنا منهمكةٌ بترتيب المائدة.. ثم قال لي:

- أشكرك على تحمّلي وتسليتي طوال هذه المدة.. مع أنني ربما- في نظرك- لا أستحق..

ارتديتُ ذات الابتسامة الباردة.. وهززتُ رأسي أن لا شكر على واجب..

بعد لحظات.. عاد عماد وفي كلتا يديه كومةٌ من غزل البنات الوردي الملتف حول عود خشبي صغير.. ركضتُ إليه كطفلةٍ في الرابعة.. خطفتُ عودي وبدأتُ التهامه قبل العشاء.. كانت أملا قد رأته من شباك غرفتها فنزلت الأدراج من الدور العلوي لترمي نفسها في حضنه وتأخذ حصتها من الدلال السكري الخاص..

- ستفسدهما يا رجل!!..

- هما طفلتاي المفضلتان يا مصطفى..

قبّلته دون تردد.. وفعلتْ أملا.. فملأنا ذقنه الناعمة بفتات السكر..

بعد العشاء.. احتالتْ طفلتي على عماد ليقرأ لها حكاية ما قبل النوم.. كان مصطفى قد بدأ حديثه المطوَّل على السكايب مع صديقه بنجامين في باكستان ليستعلم أحوال الحملة التي فوّتها..

يومٌ آخر في قربه انتهى..

أعددتُ لنفسي كوباً من الشوكولا الساخنة صعدتُ به إلى غرفتي.. على النضد جوار كتبي، ترك لي ورقةٌ صفراء.. خطَّ عليها..

«كنتِ محقة يا غادة.. فأملا تحبّه أكثر مني.. ستظل رؤيتكما مع عماد.. عقاباً مؤلماً من الصعب تحمله..».

أدركتُ لحظتها أننا متعادلان!!.. سرق أختي وقلبي.. وسرقتُ ابنته وأبوّته..

في الصباح التالي.. كان قد أنهى تركيب اللوحة الثانية، وجمع ما استطاع من أغراضه الكثيرة المبعثرة..

ومضى!!..

******

دمشق / يناير - 2011

.. «ارحل» « degage !!».

قالتها بوقاحة وصفعته أمام الملأ.. ثم أكملتْ مصادرتها لصناديق الفاكهة من عربته البسيطة..

احمر وجهه خجلاً وصرخ بها «لم تفعلين هذا.. أنا إنسان بسيط».. لكنها لم تهتم.. فحاول «بسبوسة» كما يسميه زملاؤه في السوق أن يشكيها لأحد المسؤولين في البلدية، لكن طلبه كان مرفوضاً.. فحدث أن بلل نفسه بعلبة «تنر» وأضرم النار بجسده أمام مقر ولاية «سيدي بوزيد».

كرة النار الملتهبة في الشارع التونسي والتي حاول البعض إخمادها بطفايات الحريق الفارغة.. فجّرتْ الحميّة في نفوس التونسيين الذين ضاقوا ذرعاً بتحمل ظروفهم المتمادية في السوء.. فأطلقوا ثورتهم على «زين العابدين» رافعين على أعلامهم ومطلقين حناجرهم بكلمة الشرطية الجائرة.. «ارحل».

و«رحل» زين العابدين.. كما لم يكن متوقعاً!!..

كنتُ وعادل نشاهد التلفاز بصدمة.. متأثرين بالتقرير المعروض عن طفلةٍ تهدي جندياً وردة حمراء، بعد رفض الجيش قصف المتظاهرين في مدينة «القصرين» غرب تونس.. كانت بمعطفها الوردي وصغر حجمها ترفع يدها للجندي المتسلح ببندقية.. لم تخف منه، وكأنها شعرتْ أنه موجودٌ لحمايتها..

- والله رجل!!..
- من تقصد؟..
- رشيد عمار.. قائد جيش البر التونسي..
- لأنه رفض إطلاق النار على المتظاهرين؟!..
- طبعاً.. هو ليس بالقرار السهل أن يعارض أمر رئيسه..
- أتظن لو حدث أمر مماثل هنا.. سيقف الجيش مع الشعب أم ينصاع لقائده؟!..
- لا قدر الله يا ابنتي.. لا يمكن أن يثور الشعب على النظام هنا.. بلادنا آمنة..
- عادل.. ألا ترى فرحة الناس في الشارع بما حدث في تونس!!..
- أن نفرح للتونسيين، فليس بدافع الغيرة.. ألا تسمعين التقارير الفاضحة عن فساد نظامهم.. وعجز رئيسهم..

- ...
- غادة حبيبتي.. ربما كانت السنوات الأخيرة التي قضيتها في أميركا.. قد أثرت على أفكارك ووسّعت احتمالات المستقبل في نظرك.. لكن الحياة هنا مختلفة.. والأفكار أيضاً.. وأنا وأنت وكل السوريين يعلمون.. أن مستقبلنا مع الأسد.. «للأبد!!».
- نعلم.. أجل..

تنهد ببعض الغضب.. ثم قال لي:

- سأل عنك جهاد مساء أمس.. اذهبي إليه.. صحته ليست على ما يرام..
- حسناً..
- غادة.. أحاديث السياسة للمنزل.. للمنزل فقط.. أتسمعين؟..
- حاضر.. لا تجهدْ نفسك..

هزَّ رأسه بغير اطمئنان.. وأشعل سيجارة..

كنتُ قد قدمتُ لزيارته بطلبٍ من الخالة خديجة.. اشتكتْ أنه لم يعد يصغي لنصائح أطبائه، ولا يتناول الأدوية بانتظام.. وأنها خائفةٌ عليه فصحته في تراجع واضح.. فأتيتُ كي أراه، لا لأغيّره.. لأنني في الحقيقة خسرتُ معه كل جولاتِ التمني والتأني، مذ رأيتُ في عينيه آخر مرة كمَّ اليأس المدقع وتسفيه الحياة..

******

في السوق.. وجوه الناس مختلفة.. وكأن بعض الأقنعة قد سقطتْ.. والبقية تتحيّن السقوط..

ما عاد الباعة يجرّونك إلى محلاتهم لتشتري أو تتفرج على الأقل.. وما عاد الزبائن مهتمين بالمجادلة والمفاصلة على الأسعار.. شيءٌ غريبٌ كان ينمو في خفايا السوق.. يحوّل الجميع إلى تائهين.. حائرين.. خائفين..

دخلتُ محلنا القديم، فلم يشعر أحدٌ من العمال بدخولي.. حتى العم جهاد.. الذي عوّدني على استقباله العذب.. كان على كرسيه، محنيَّ الظهر، متلفحاً بوشاحٍ سميك غطى نصف وجهه، يحدّق في شاشة التلفاز، ويهزُّ رأسه للصورة والصوت المرافق لها..

«هرمنا.. هرمنا..».

«أحمد الحفناوي» بعبارته الشهيرة التي حفظها الجميع.. كان هو السبب وراء هذا الوجوم..

- صباح الخير..

قلتها بحزن.. واقتربتُ منه.. فقام بصعوبة عن كرسيه.. حضنني بشدة..

- صباح النور يا ابنتي.. هكذا إذا لم يسأل عنك العم جهاد، لا تأتين لزيارته؟!..

- لا تظلمني.. تعلم أنني لا أفعلها.. لكن ألما مرضتْ يوم وصولنا بالنكاف، فلازمتها كل هذه المدة.. أنت قطعة من روحي يا عم..

- والله وأنتِ كذلك.. تفضلي.. تفضلي..

غلب الصمت على لقائنا على غير العادة..

هذا الرجل المكسوّ بالحزن.. مات قلبه مذ وصله خبر وفاة ابنه الأكبر «أمين» الذي خرج للجهاد في العراق مع بعض أصدقائه المقربين، أيام الحرب الأخيرة.. فترك خلفه أباً ينتحب وأماً تحتضر..

- كيف هي الخالة أم أمين؟!..

- مسكينة.. وكيف يكون حالها بعد استشهاد أمين!!.. البنات لا يفارقنها لحظة، ويتناوبن على رعايتها صباح مساء.. لكنها تعبتْ من العلاجات الكثيرة وما عاد تستجيب كذي قبل.. والله يا ابنتي، أنام هنا معظم الأيام، ولا أعود إلى المنزل، كيلا أسمع أنينها طوال الليل.. حين تئنُّ أشعر أن صوتها ينحت في روحي، يزيدني هماً فوق هم..

- عافاها الله وشفاها..

- ادعي أن يتلطف بها.. ويحسن آخرتها وآخرتي..

- بعد عمرٍ طويل يا عمي..

- ولم؟!.. ما نفع العمر إن طال يا ابنتي.. ما جنينا من العمر الذي فات لنتأمل بالعمر الآتي؟!..

كل الكلام الذي كان من الممكن أن يخفف عنه.. غدا أكاذيب لم أشأ غدره بها.. أجل.. ما قاله هو الحقيقة.. فلم المواربة؟!.

- أتعلم؟!.. حين تتحسن ألما.. سأحضرها معي إلى هنا.. لتحكي لها عني وعن أمي وعن أبي وجدي.. أظن أن هذه الطفلة تعاني من فراغ الذاكرة.. ولا أبرع منك في ملئها..

تبسَّم بأسى.. بدا.. وكأنه قد نسي كل شيء وما عاد يتذكر.. أو أنه غير راغبٍ بالعودة إلى ماضيه، ولو حتى بحكايةٍ يقصُّها لطفلة.. من المحزن حقاً أن تشعر بأنك عديم الفائدة.. فيكون وجودك إلى جانب أحدهم غير مؤثر..

جهاد الذي كان على استعدادٍ أن يفرش أرض الحميدية وروداً لأجلي.. فقد حيويته وبهجته.. وما عادتْ أي فكرةٍ قادرةٌ على إشعاله.. أمضيتُ معه

معظم النهار، وعدتُ إلى المنزل مشحونةً بالهم والكدر.. ذهبتُ إليه لأسعده.. فعدتُ برفقة أحزانه!!..

******

- مدام غادة!!.. مدام غادة!!..

أيقظتني بتول من غفوتي بحماسة..

- شو صاير؟!.. ألما بخير؟!.. بابا بخير؟!..
- لا تخافي.. الجميع بخير..
- لم توقظينني إذاً؟!..
- أخبار اليوم.. لا تفوتيها..
- وما الجديد؟!..
- المصريون.. المصريون أيضاً ما عادوا يريدون حسني مبارك.. الملايين تظاهروا ضده اليوم..

في غرفة الجلوس.. وجدتُ أبي والعم أحمد.. كان صوت التلفاز مرتفعاً وكأنهما جالسان وسط الجموع الثائرة في ميدان التحرير..

- فعلها أحفاد الفراعنة..

نظر إليَّ العم أحمد كثائرٍ منتصر.. هو من عشاق مصر وشعبها.. فقد درس الطب في جامعة «عين شمس» وأمضى سنيناً طويلة في القاهرة.. تعايش مع أهلها، أحب تفاصيلها، وانتقد ما فيها من تلوثٍ وفساد.. لذلك بدا متعاطفاً معهم.. على عكس عادل الذي استند بمرفقيه إلى ركبتيه، وعلى جبينه عقدة المتذمر..

غمزتُ زوج عمتي مشيرةً إلى تجهّم عادل..

- يبدو أن بعض الناس لم يُسعدهم الخبر..
- هذه عاصفة.. وليس مجرد خبرٍ عاجل.. وما أبرعنا نحن العرب في اختطاف الريح!!..

أجابني أبي بكدر.. كان نصف غاضب، نصف خائف.. يشعر باقتراب حدثٍ مخيف، قد يكون الزلزال المدمر لكل ما بناه..

- ولم أنت غاضب؟!.. دع الريح تطهِّر هذا الوباء!!.. كان يجب أن يحصل هذا منذ أمد.. لا أفهم كيف بوسع شعبٍ أن يصبر على رئيس واحدٍ كل هذه الأعوام.. أهي جمهورية أم ملكية؟!.. قل لي.. من أورثها لهم؟.. سأجيبك أنا.. هم الذين فعلوا.. بصمتهم وخوفهم..
- بالله عليك.. يا احكي متل الناس.. يا ورجيني عرض كتافك..

انتفض عادل من كرسيه.. أطفأ التلفاز.. ثم دخل إلى مكتبه وقفل

على نفسه الباب..

كان رد فعل العم أحمد غريباً بعض الشيء.. ليس من عادته أن يصمت على تطاول أبي.. فلطالما اعتبره ابناً له، نظراً لفارق السن بينهما.. لكنه اكتفى بابتسامة مبطنةٍ ببعض الشماتة.. لمحتها تلمع في عينيه..

قال لي قبل أن يغادر..

- من الأفضل أن يحوّل أمواله الباقية إلى أرصدته في الخارج.. وأن يجمع ألماساته النادرة وأنتيكاته الأثرية ويهرب من هنا.. يبدو أن البلد مقبلةٌ على ربيعٍ قد يثير حساسيته!!.. بلّغيه نصيحتي..

******

دمشق / فبراير - 2011

وكما يحدث في الروايات الحالمة وملاحم الخيال الثورية..

تنحى مبارك عن حكم المصريين بعد مماطلة دامت ثمانية عشر يوماً من اندلاع ثورتهم.. وفي ذات اليوم انتقلت الشرارة إلى الشارع اليمني الذي انشغل بـ«علك القات» أعواماً طويلة عن التفكير بالتغيير..

والحقيقة أنها كانت أيام يقظة.. يصعب النوم فيها.. كنتُ مقيمة في غرفة الجلوس.. أنام ساعة وأصحو عشرة.. أقلّب بين المحطات بهستيرية ملاحقة للأخبار العاجلة.. وأشاركها مع ميسا وعماد على الفيسبوك.. ظللتُ على حالتي تلك أيام.. حتى جاء «يوم الغضب» الذي فجر سبع مدن ليبية في وجه «معمر القذافي» وكتابه الأخضر.. وخلال يوم واحد تصاعد العدد إلى ست عشرة مدينة..

شعرتُ وشريط الأخبار يتنقل بين مصر وليبيا واليمن، أنني أكاد أسمع هدير السيل الجارف يقترب أكثر فأكثر..

كان يوم جمعة.. قررتُ فيه الخروج من اعتكافي إلى العالم الخارجي.. فحبيبتي ألما قد تحسنتْ، وزالت عوارض الانتفاخ عن خديها.. طلبتْ مني اصطحابها إلى الحديقة المجاورة لتلعب قليلاً.. ولو أن البرد واخز.. لكنها معتادةٌ على بردٍ أشد..

راقبتها بشرود وهي تمرح كفراشةٍ بين الألعاب الصغيرة.. ثم تأملتُ السماء الواسعة، البيوت من حولي، الشوارع والأرصفة، الأشجار وأعمدة النور في الحي.. تساءلتُ إن كانتْ دمشق بخير.. أم أن كل الياسمين الذي فيها لن يغني الدمشقيين عن ربيعٍ جديد؟!.. ثم تخيّلتُ المكان وقد انقلب إلى ساحة تظاهر يملأها الناس ويعلوها الهتاف.. وإلى الشوارع وقد اكتظت برجال الشرطة.. وإلى السماء وقد لوثها الغاز المسيل للدموع.. وإلى ورق الشجر المرتعش من صوت صفارات الإنذار.. وإلى البيوت وقد اخترقتْ جدرانها الرصاصات الطائشة.. وتخيلتُ ما يمكن أن يحدث لابنتي البعيدة خطوات لو تاهت مني في تلك الفوضى.. فركضتُ إليها مذعورة.. حضنتها وبكيت.. وتمنيتُ لو كان بوسعي حضن دمشق كطفلتي، أو لو كان بيدي عصا سحرية، تجنبها الكارثة القادمة..

حين عدتُ للمنزل.. كان عادل بانتظارنا.. في يده تذكرتي سفر إلى كليفلاند.. توسّلته أن نبقى.. لكنه رفض.. وكأن ناقوس الخطر الذي دقَّ في عقلي، داهمه أيضاً، ودفعه إلى إقصائنا بعيداً عن دمشق..

قلتُ له..

- وأنت أبي؟!.. تعال معنا..
- مستحيل.. فمكاني هنا..
- كيف تطلب مني إذاً أن أرحل؟!..
- لا بأس يا ابنتي.. دمشق بخير.. وستظل بخير.. لا تخافي عليَّ ولا عليها..

الخوف على دمشق.. هو آخر ما توقعتُ يوماً اختباره.. فلطالما شعرتُ بها حضناً دافئاً يدرأ عني مخاوف الدنيا.. كان تخيُّلها تتحول إلى عراء، هو أبلغ تعبيرٍ للقيامة!!..

******

كليفلاند / ديسمبر 2011

ويضجُّ فيك القلب يا رجلي.. يا ثورة الأفراح والأحزان.. يا ولاّعة الأمل..

أهزُّ رأسي، لأخرجك منه..

يداي مشغولتان بغسل الأطباق، وعيناي تلاحقان ابنتك وعماد في نوبة مرحهما على الثلج الأبيض..

يمتلئ الحوض رغوةً صابونية هشة.. فأغمض عينيّ وأحجبهما بكفين راجفتين محمرّتين.. أضيع في دهاليزك يا مصطفى.. تلك التي زدتها غموضاً وعتمةً بغيابك.. وأعجب ما أمر الرعشة التي في جسدي.. أهو احتياجٌ إليك أم اشتياق.. أم هما لفظان مختلفان لرغبةٍ واحدةٍ تنبش الذاكرة وتعرّي كل شيء..

بالأمس تسللتُ إلى منزلك وحيدة.. فتشتُ عن آثار أقدامك.. عن رائحتك.. عن مرورك في الحديقة الخلفية أو قرب المداخل.. فلم أعثر على أدلةٍ لرجوعك إليه.. وتحيّرتُ إذ أهملتني بغيابك الفجِّ.. لماذا أنت؟!..

لماذا أنت من تقف الحياة أمامك بالعةً ريقها.. حابسة أنفاسها.. جاهزةً لاندلاع العاصفة؟!..

لماذا.. وأنت منذ البدء مستحيلٌ لا رجاء في سبرك أو اكتشافك؟!..

ولماذا تآمرتَ عليَّ وحيرتي، كقدرٍ لا مفرَّ من إحقاقه؟!..

أبكيك ككل شوق.. وأعود لأطباقي المتسخة برغوتها العارمة.. ومواصلة النظر إليهما.. كانا قد انتهيا من صنع رجل ثلجٍ ضخمٍ، وبدأا رسم ملامح وجهه بجزرةٍ ذابلةٍ وحبوب التوابل..

تأملتُ عماد.. وابتسمت..

في براءة عينيه وقد حمل ابنتك على كتفه وجال بها مساحات البياض الممتدة حول منزلنا.. تهتُ وتذكرتُ شعر المتنبي..

لو كان قلبي معي ما اخترتُ غيركمُ
ولا رضيتُ سواكم في الهوى بدلا
لكنه راغبٌ في مَن يعذبه
وليس يقبل لا لوماً ولا عذلا

******

اسطنبول / ديسمبر - 2013

حزينةٌ أنا هذا الصباح..

أشعر بالحب الكبير قد اهترأ.. وبكلِّ الرقع التي سترتْ عيوبه سنيناً.. تزيده اليوم بؤساً ورثاثة..

أشعر وكأنَّ غيمة داكنة هبطت على رأسي فأعماني ضبابها.. وليس ثمة فقدٌ كالعمى..

أنا كمن أضاع سبيله.. أضاع رفيقه.. وما عاد لبوصلته شمال!!..

حنّطتُ نفسي في جحيم انتظاركَ وتركتُ الحياة تسير أمامي بكل متعها وترفها.. ظللتُ في صمتي كرةً متبلورة، تعكس للآخرين صفاءها وتحبس في داخلها طريق الفرح..

حتى عماد.. الصديق الوحيد الذي عثرتُه بعد وحدة.. أرادني أكثر من صديقة.. عرض عليَّ الحب الكامل.. فتملَّصت من عرضه أول مرة بحجة أنني غير جاهزة..

كنتُ كعادتي أكذب.. فليس هنالك امرأةٌ غير جاهزةٍ للحب.. هي إما ما زالتْ عالقةً بحبها الأول.. أو نازفةً بخيبتها الأخيرة.. ورغم هذا.. قذفتُ نفسي في عماد.. وتزوجته.. تمنيتُ أن يكون غولاً فيبتلعني لأنسى في جوفه حنيني إليك.. لكنه كان أكثر لطافة.. فزادني في قربه تعباً وحيرة..

وما زال هذا الحب يحيّرني يا مصطفى.. وما زلتُ فيه لا أدري ما آلمني أكثر.. أهو عدم يأسي.. أم صدودك.. أم وخز كبرياءٍ أفرطتُ به منذ التقينا..

لكم تغدو النفس في الحب آمّارةً بالعند!!.. فكم ألف مرةٍ أدركتُ أنك لا تحبني.. وكم خدعتني نفسي مع كل إدراكٍ أن «لا فرق ما دمتِ تحبينه!!».

تلك الليلة، نمتُ في حضن الرجل البديل، وصحوتُ على صباح انتظارك.. حضرتُ فطوراً سريعاً لي ولميسا.. لا أنا أكلت ولا هي.. أعوام غيابك غيّرتنا يا مصطفى.. فطالبتك النجيبة.. عثرتْ على رجلٍ جديد.. أكثرُ ثراءً منك، وأشد جاذبية.. وتستطيع القول إنها نسيتْ أيامها معك يا مصطفى.. وأظنك مثلها، نسيتها..

لا أدري لمَ لم أنجح بذلك أيضاً.. مثلكما.. ولا أجد لمأساتي معك سوى تفسيرٍ واحد..

المسافات!!..

يبدو أن مشكلتي في حبك، ستظل مشكلة مسافات.. مسافاتٍ لا أجرؤ على تخطيها.. سواء أكانت قارة أم مدينة، حي أم شارع، غرفة أم خيمة، خطوة أم نظرة.. وسأظل في زوبعة بحثي عنك، أمارس غرقي المفضل.. وأرفض صرخة «النجدة».. وكأنك لي ولستَ لي.. تعنيني ولا تعنيني.. كلما أقترب منك يقذفني الشك عنك مسافات..

أفقدتني شهيتي للطعام يا مصطفى.. لزراعة الورد.. لتربية ابنتك.. وللكتابة.. تركتني جائعةً إليك، عالقةً في كل تلك التفاصيل التي لا تختفي باختفائك..

ذاك الصباح، قطعتْ ميسا عليَّ شرودي، بعينين ثاقبتين، وصرخت بي:

«لا تنتظريه يا غادة.. لن يأتي!!.. اذهبي أنتِ إليه.. وصارحيه.. فما جنيتِ من جلد العاطفة؟!.. وافتعال التناسي اليومي المتكرر؟!.. نحن لا نتوقف فجأةً عن حُب من نحب، وقد لا ننجح في التوقف أبداً.. اذهبي إليه.. حتى لو لم يكن ينتظرك.. اذهبي أنتِ إليه..».

أتصدِّق أن هذا ما فعلته بعد أعوام صبري في هواك!!.. حجزتُ لنفسي في أول رحلةٍ.. وأتيتُ إليك..

أتيتك بكل ما في جعبتي من حبٍّ وعطش.. لأنك ساعة الرحيل.. سرقتَ المطر في جيب معطفك ومضيت.. وجعلتَ البحث عنك أشد ضرورة.. فالمرأة التي تخسر رجلها وشتاءها في يومٍ واحد.. تجمح لفعل أي شيء يعيد لها خصوبة الإزهار أو على الأقل من كانت تتوق أن تزهر لأجله..

******

حين وصلتُ اسطنبول قبل عام.. انتابتني رهبة البدايات الجديدة.. مع أنني في الحقيقة لا أخشى البدايات.. لكنني أخشى تكرار الأخطاء ذاتها وهدر الفرص.. كنتَ دائماً تأتي مع كل بداية، كفرصة ذهبية عليّ اغتنامها، فأضيّعك بحصار صمتي وليل انتظاري.. لكنني في مرَّتي الأخيرة، وعدتُ هذه المدينة الجميلة.. أن أخلّد فيها فتحي العظيم لحبك..

كنتُ حين وصلتُ هائمةً بالأمل، مُكثرة التفاؤلات.. نسيتُ أننا في هذا العالم المتمرد، نحتاج ألا نكثر من التوقعات ونرصفها خلف بعضها سلسلةً مُثلى، فأول خيبة مهما كانت هشة، تفضي بنا للسقوط التام!!..

والحقيقة أنني مذ فقدتك ما عدتُ أتتبع أخبارك عن عمد.. تمنيتُ التأقلم مع فكرة عدم وجودك في حياتي.. تمنيتُ نسيان ذاكرتي في عينيك الداكنتين.. واصطناع «الزهايمر المبكر» أمام الناس عنك..

لكنك يا رجلي.. قدري!!..

فحدث أن وشى بك عماد في حديثٍ عابر.. قال إنك مذ فقدتَ الساق اليسرى، التزمتَ البقاء في مخيم (الإصلاحية) على الحدود السورية ولم تخترقها إلى الوطن مجدداً.. وظلَّ يثرثر..

قلتُ لنفسي- وهو يثرثر- «سأعثره هذه المرة إذاً!!..».. سأكذب على عماد فأخبره أنني ذاهبةٌ إلى اسطنبول لزيارة عادل، الذي اشترى منزلاً جديداً، انتقل إليه مع الخالة خديجة، واستعاد حفيدته بحجة أنني ما عدتُ بها مهتمة.. فأيام غيابكَ يا رجلي جعلت مني امرأةً مختلفة.. قد تراها فلا تعرفها.. هي ضحية إدمانها عليك..

كنتُ آتية إليك.. فلدي عنوانٌ صريح.. و«سأعثرك لا محالة!!..» هكذا.. وعدتُ قلبي.. قلتُ له..

«سأذهب إليه، سأبتسم له، وأقترب منه.. سأحضنه.. أقبّله.. ثم سأبوح بكل ما في حبه كتمت..».

وما أنسانيكَ شيء كهذا الحزن القارس.. الذي عثرني قبل أن أعثرك.. فالسائحة التي وطئت تركيا ونامتْ ليلتها في جناحٍ فاخر في «هيلتون- اسطنبول»، وجدتْ نفسها تتشارك خيمةً مع ثمانية أفراد.. وتنام على بساطٍ خشنٍ ومخدةٍ متحجّرة..

ما عادتْ تحلم بك يا رجلها.. وكأن الكيلومترات التي قطعتها إلى «غازي عنتاب».. كانت طريقها لا إلى العثور عليك.. بل إلى فقدانك..

******

على مقربةٍ من أحد المداخل.. وقفتُ مفجوعةً بالمشهد!!.. فرغم قراءاتي الكثيرة عن مآسي الحروب، ومتابعتي للتقارير التلفزيونية عن هكذا مخيمات.. ما أبصرته ذاك النهار.. كان حقيقة مختلفة..

أوقفني أحد الرجال السوريين.. سألني ما جاء بي.. نسيتُ أنني جئتُ أبحث عنك.. فقلتُ له: «أنا ممرضةٌ مبتدئة.. أجيد الإسعافات الأولية وبعض الممارسات الطبية، وأريد المساعدة».. فلم يسمحوا لي بالدخول إلا حين تثبتوا من جواز سفري الأمريكي، رغم لهجتي السورية الواضحة.. أتصدق أنهم ما عادوا يخافون من أحد، كما يخافون من السوريين أنفسهم!!..

وما إن خطوتُ بضع خطواتٍ إلى الداخل، حتى التف من حولي جمعٌ من الأولاد الصغار.. مسكوا ثيابي بكفوفهم الشاحبة المتسخة وسألوني ما جلبتُ لهم.. بحثتُ في حقيبة يدي.. عثرتُ على قطعة شوكولا قديمة، كنتُ قد اشتريتها من المطار.. أعطيتها لأحدهم.. فركض الباقون خلفه يريدون اقتسام الغنيمة..

كان البؤس في كل مكان!!..

على يميني أمٌ تحاول إشعال بعض الحطب الرطب دون نتيجة.. تصرخ بابنتها الصبية لتعجّل في تعليق الغسيل على ظهر الخيمة قبل أن تمطر من جديد.. وعلى يساري رجلٌ مسنٌ يجلس على صخرةٍ صغيرة يدخن سيجارته ويحمل كيساً فارغاً، فهمتُ بعدئذٍ أنه كان بانتظار سيارة المساعدات الغذائية.. وأمامي وخلفي خيامٌ كثيرة.. محشوةٌ بالبؤس.. لا ترى منها إلا وجوهاً يائسة ولا يطالك من حديثها إلا بكاءٌ وتأوهات..

صداعٌ ودوار.. تسلطا على رأسي الصغير.. شعرتُ أن دمي يرتشح من جلدي ويتبخر في الهواء.. وقفتُ عاجزةً عن الإتيان بخطوة.. لولا تلك المرأة العجوز التي اقتربت مني، وسألتني..

- خير يا بنتي.. ليش لونك مخطوف؟!..

أمسكتُ بكفها.. عروقها البارزة كما لو أنها جذور شجرةٍ أصيلة.. ارتميتُ أريد الاستناد عليها.. فوقعت.. وحين استيقظتُ من إغمائي، وجدتني ممددةً على حصيرٍ رطب، يكسوني غطاءٌ رائحته كريهة.. شعرتُ بالإقياء.. واسترجعتُ عصارتي وسط الخيمة..

اقتربتْ مني ذات المرأة.. مسحتْ وجهي بطرف منديلها..

- لا بأس عليكِ.. ستأتي مريم لتنظف الأرضية.. ما بكِ يا ابنتي.. أأنت مريضة؟!..

- أنا آسفة.. أعتذر منك يا خالة..

- لا بأس عليكِ.. سأحضّر لك حساءَ القمح الساخن.. فالمكان بارد.. ويبدو أنك ابنة نعمة، غير معتادةٍ على هذا الشقاء..

غابتْ قليلاً.. ثم عادتْ تحمل صحناً معدنياً صدئ الحواف، فيه حساءٌ لونه غريب.. تذوقته كيلا أحرجها أكثر، فكان شهياً.. شربته حتى آخر قطرة، وحقاً أشعرني ببعض التحسن..

ازدحمتْ الخيمة مع حلول الظلام..

مريم وأطفالها الأربعة.. وأختها عائشة التي عادتْ من عملها كخادمة في منزلٍ تركيٍّ قريب، وجلبتْ بقايا طعام العشاء لعائلتها الجائعة هنا.. وباسمة أصغر بنات الخالة أم سالم.. جلستْ قربي.. يبدو أنني كنتُ أحتل فراشها ولا بد أن نتشاركه سوياً.. نزعتْ غطاء رأسها تريد النوم، فكشفت عن آثار حروقٍ مريعة التهمتْ نصف وجهها، أذنها اليسرى، وامتدت إلى عنقها وأجزاء من كتفيها..

بفطنةٍ.. لاحظتْ وجلي من روع منظرها.. فقالتْ لي:

- لا تخافي.. أنا لا آكل البشر..
- لستُ خائفة.. ولكن كيف حصل هذا؟!..
- والله مللتُ من تلك الرواية.. قصصتها على مراسل الجزيرة ومراسلة العربية وبي بي سي وصحفيين أجانب مع مترجمين من المخيم..
- أنا آسفة..
- لا تهتمي.. سأحكي لكِ.. كانت أمي وعائشة في البستان، تقطفان ثمار الكوسا لأبي- رحمه الله- كي ينزل بخضاره إلى السوق ويبيعها.. لم أذهب معهما.. كنتُ طالبة «بكالوريا».. وكان أخي سالم متفائلاً بي.. قال لي: «ربما ستصبحين طبيبة مثل غادة، ابنة الرجل الذي عملتُ عنده قبل سنوات».. ولكن انظري ما حدث.. سقطت القنبلة على منزلنا.. أحرقته بالكامل.. واستطاع الجيران إخراجي من تحت الركام بأعجوبة.. فتحولتُ إلى «الغولة» التي أنا عليها الآن..
- أنتِ أخت سالم.. سالم عطا الله؟!..
- أجل.. أتعرفين أخي؟!..
- أين هو الآن؟!..
- فقدناه قبل أكثر من عام وما زلنا لا نعرف عن مصيره شيئاً..

هذه الدنيا القوقعة!!.. من بين كل خيام اللاجئين.. لم أسقط إلا في خيمة سالم!!..

نمتُ غرقى بالدموع.. وأيقظني صوت باسمة.. كانت قد جمعتْ حولها بضع بناتٍ ونسوة، تقرأ لهنَّ بنبرتها الجريحة، سطوراً من رواية غسان كنفاني «عائد إلى حيفا».

«أتعرفين ما هو الوطن يا صفية؟.. الوطن هو ألا يحدث هذا كله!!.. وسألته زوجته متوترةً بعض الشيء:

- ماذا حدث لك يا سعيد؟!..
- لا شيء.. لا شيء أبداً.. كنت أتساءل فقط.. أفتش عن فلسطين الحقيقية.. فلسطين التي هي أكثر من ذاكرة، أكثر من ريشة طاووس، أكثر من ولد، أكثر من خرابيش قلم رصاصٍ على جدار السلَّم.. وكنتُ أقول لنفسي: ما هي فلسطين بالنسبة لخالد؟.. إنه لا يعرف المزهرية، ولا الصورة، ولا السلم، ولا الحليصة، ولا الحلزون.. ومع ذلك فهي بالنسبة له جديرةً لأن يحمل المرء السلاح ويموت في سبيلها.. وبالنسبة لنا- أنت وأنا- مجرد تفتيشٍ عن شيءٍ تحت غبار الذاكرة..».

جُمل الرواية بدتْ أشد قسوة من قراءتي الأولى لها.. فما عادتْ مجرد

حكاية فلسطينية مؤثرة.. صارتْ تشبه حكايات السوريين في الوطن ومخيمات اللجوء..

ربما كان أبي على حق.. فدمشق لا تستحق حماقاتنا.. وتغيير الرئاسة لا يكون بالبندقية.. لأن رصاصها لا يصيب الهدف أبداً.. بل يرتد على حاملها.. ويجلب الموت والدمار.. لكن ما حدث قد حدث.. وما عادتْ قضية «رئيسٍ أو بندقيّة؟!..».

كل هؤلاء الضحايا.. وغيرهم.. في الأردن.. ولبنان.. ومصر.. وأرجاء الدنيا.. هم القضية!!..

أتعلم يا مصطفى؟!..

أدركتُ حين أتيتُ، معنى أن تحوم سنيناً بين مخيمات الحرب والكوارث.. فالحياة بكل ما فيها تتصاغر على عتباتِ خيمة!!.. وشعرتُ بالخجل منك، حين ظننتك أحمقاً يهدر رصيده المالي والعمري لمساعدة مشردين لا يعرفهم.. وحين سألتك ألف مرةٍ أن تكفَّ عن العطاء..

وأعترف أنني ما استطعتُ الشقاء هناك مدةً طويلة.. فما شعرتُ به من تقلباتٍ جسديةٍ ونفسية.. ما كان مجرد وعكةٍ عابرة.. هي الأمومة يا مصطفى.. تتهيّأ لترزقني طفلاً من عماد!!..

******

في منزلنا الجديد المطلِّ على مضيق البوسفور.. وحول الطاولة الأنيقة المزخرفة بنقوشٍ عثمانية.. جلسنا نتشارك العشاء..

الجميع هنا يا مصطفى.. الجميع بخير.. عادل وابنتكُ الجميلة.. سلمى والعم أحمد.. عماد الذي حضر على عجالة حين بلغه نبأ المولود المنتظر.. عائلة سالم وقد عادت معي وقبلت عرضي لاستعادة حياتها المفقودة.. وأنا.. منسيّتك الحزينة!!..

آهٍ يا مداي الأجمل؟!..

لطالما كنتُ بانتظارك ساعةً رملية.. كلما فرغتُ من أملي، أنقلبُ على نفسي لأمنحها وقت انتظارٍ جديد.. لكنَّ رحيلك أحرقني.. وحين جئتكُ برمادي.. ظللتَ في غيابك تبعثرني أصقاع العذاب.. ولم تأتِ!!..

بعد العشاء.. خرجتُ إلى الشرفة أبحث عن بعض البرد.. فداهمتَ خيالي في الظلام.. رأيتكَ تعرجُ على قدم واحدةٍ في مكانٍ ما داخل أرض الوطن.. وقد طالت لحيتك وشعث شعرك.. وتضاءل جسدك تحت قميصك المسدول على سروالٍ بالٍ كناسكٍ زهد الحياة بما فيها.. ولمحتُ عينيك التعبتين وقد تكاثفت التجاعيد حولها كشيخٍ هرم قبل أوانه..

لو تعلم يا مصطفى كم أشتهي مفارقة أخيرة تحملني إليك.. لكنني كنتُ كل هذا الوقت في هواك، فراشةً ضعيفةً عاجزة عن التحليق، تائهةً بلا أجنحة.. مزّقتْ شرنقتها وزحفتْ خلف سطوعك مسحورةً بالنور.. ففاتها أن فراش الفانوس ما لم يحترق، يُصابُ بالعمى!!..

نظرتُ إليهم من خلف الزجاج الرطب.. فلمحتُ ابتسامة «باسمة» وقد اكتنفها أبي تحت ذراعه.. قد أبلغها إذاً بقرار معالجة وجهها مهما تكلف من وقتٍ ومال.. زفرتُ همي.. واستعدتُ ذاكرة المخيّم.. كنتُ قد تعودتُ على معظم تفاصيلها إلا رؤية أولئك الأطفال الذين يصحون كل صباح على فراغ المعدة المسائي.. يوضّبون أشياءهم القليلة.. ويمضون إلى معمل التبغ المتآكل، المُسمى اليوم «مدرستهم».. أولئك الأطفال بحقائب «اليونيسف» الزرقاء الموحدة، وأحذيتهم الكبيرة المتسخة، ومعاطفهم الضيقة المبللة، وخدودهم المحمرة برداً وخزياً.. هم الذين ملأوني يقيناً بخسارة الوطن..

فخراب الحرب يا رجلي.. يشبه خراب الحب.. يُلهب حرائقه في خلايا الذاكرة ويفتح نفق عبورٍ ضيقٍ إلى المجهول.. في الحرب نسلكه إلى بلدٍ غريب.. وفي الحب إلى جسدٍ غريب.. ونصدّق أنّا بالغريب نعوض خسارتنا.. لكنها مجرد كذبةٌ رخيصة نصون بها كبرياءنا الأرعن.. فخسارة الوطن يا رجلي.. كخسارة الحب.. غير قابلةٍ للتعويض!!..

انتهى